الفصل السادس عشر

المانيا قبيل عهد لوثر

١٤٥٣ – ١٥١٧

١ – عصر آل فوجر

كان التوفيق حليفا لكل الطوائف فى ألمانيا ما عدا الفرسان فى السنوات الخمسين الأخيرة قبل عهد الإصلاح الدينى ، ولعل ارتفاع منزلة الفلاحين هى التى زادت من استيائهم على ما بقى من إحساسهم بالعجز . إذ كانت قلة منهم لا تزال من طائفة عبيد الأرض وأقلية منهم ملاكا ، وكانت غالبيتهم مزارعين مستأجرين يدفعون الإيجار إلى السادة الإقطاعيين إنتاجا عينيا أو يقدمون لهم خدمات أو نقوداً . وكان المستأجرون يشكون من ظلم السادة ، من أيام العمل الإثنى عشر والتى تصل إلى ستين يوما فى بعض الأحوال والتى حتمت التقاليد أن يبذلوها لهم فى كل عام ، ومن استرداد الأرض من عامة الناس ، تلك الأرض التى جرى العرف على السماح لهم فيها بصيد الأسماك وقطع الأخشاب ورعى الماشية ، ومن الأضرار التى لحقت بالمحاصيل من صيادى السيد وكلابهم ومن سياسة القضاء المتحيزة فى المحاكم المحلية ، وكان الملاك يسيطرون عليها ، ومن الضريبة على الموتى التى كانت تفرض على أسرة المستأجر عند ما يحل موت عميدها بالعناية بالأرض . وثار الملاك الفلاحون غضبا بسبب الضرائب المضاعفة التى كان لزاما عليهم أن يدفعوها على القروض المطلوبة لنقل محصولاتهم وعلى حبس الرهن السريع للمزارع بوساطة المرابين ، وكانوا يقدمون القروض للملاك الذين يتضح لهم عجزهم عن السداد : ولقد

أضمرت كل عواطف الفلاحين العداء لضريبة العشور السنوية التى تفرضها الكنيسة على محاصيلهم وماشيتهم .

وأضرم هذا التذمر نيران ثورات الفلاحين فانتشرت خلال القرن الخامس عشر ، وقام الفلاحون حول ورمز بثورة لاطائل تحتها عام ١٤٣٢ ، واختاروا حذاء أحد الفلاحين علماً لهم ، وكان حذاء طويلا يكسو الساق من الرسغ إلى الركبة ، وعلقوه على الشواخص ، كما رسموا صورته على الأعلام . وأصبح رباط الحذاء العنوان المحبب لعصابات المتمردين من الفـــلاحين فى عهد لوثر .

ولقد أعلن عام ١٤٧٦ راعى أبقار يدعى هانز بوهم أن أم الإله قد كشفت له أن مملكة السماء على الأرض غدت قريبة دانية ولن يكون هناك أباطرة ولا بابوات ولا أمراء أو سادة إقطاعيون . وأن جميع الرجال سيكونون إخوة وجميع النساء أخوات ، الكل يشاطر على قدم المساواة ثمار الأرض ، وأن الأراضى والغابات والمراعى ستكون مشاعا وملكا للجميع . وأقبل آلاف الفلاحين ليستمعوا إلى هانز وانضم له أحد القسس وابتسم أسقف فيرتسبورج فى تسامح ولكن عندما طلب هانز من أتباعه أن يحضروا معهم فى الاجتماع القادم كل الأسلحة التى يستطيعون جمعها أمر الأسقف بالقبض عليه وأطلق جنوده النار على الجمهور الذى حاول إنقاذه وفشلت الحركة .

وفى عام ١٤٩١ هاجم الفلاحون فى ضيعة رئيس دير الرهبان فى كيمبتين فى الألزاس ديره ، وزعموا أنهم أكرهوا على أن يكونوا رقيقاً للأرض بوثائق مزيفة . وعقد الإمبراطور فريدريك الثالث معهم مصالحة . وبعد مرور سنتين أعلن أتباع أسقف ستراسبورج ثورة رباط الحذاء ، وطالبوا بإنهاء الضرائب الإقطاعية وضرائب العشور الكنسية وإلغاء كل الديون وقتل كل اليهود . وفكروا فى الاستيلاء على مدينة شلتستادت ، فقد كانوا يأملون أن

يمدوا سلطانهم على الألزاس . وعلمت السلطات بالمؤامرة وقبضت على الزعماء وعذبتهم ثم شنقتهم وأفزعت الباقين فأعلنوا الخضوع إلى حين . وفى عام ١٥٠٢ كون فلاحو أسقف سبيير عصابة « رباط الحذاء » من ٧٠٠٠ رجل وتعاهدوا على إنهاء الإقطاع ومطاردة كل القسس والرهبان وقتلهم . واسترداد ما كانوا يعتقدون أنه كان مشاعا لأجدادهم . وأفشى أحد الفلاحين سر الخطة على كرسى الاعتراف فاتحد رجال الدين والنبلاء على إحباطها وعذب زعماء المتآمرين وشنقوا .

وفى عام ١٥١٢ نظم جوس فريتز حركة مماثلة قرب فرايبورج — ام — برايزجاو ، وكان من شأنها أن تبقى على الله والبابا والإمبراطور وأن تقضى على كل ملكية إقطاعية وضرائب يفرضها الإقطاعيون . غير أن واحداً من الفلاحين أكره على الانضمام لهذه الرابطة وأفشى سرها للقس الذى اعترف أمامه فاعتقلت السلطات الزعماء وعذبتهم وفشلت الثورة ، إلا أن جوس فريتز عاش إلى أن انضم إلى ثورة الفلاحين عام ١٥٢٥ ، وفى عام ١٥١٧ تكونت جماعة من ٩٠,٠٠٠ فلاح فى ستيريا وكارينثيا وتعاهدوا على القضاء على الإقطاع هناك وظلت عصاباتهم لمدة ثلاثة شهور تهاجم القلاع وتقتل بالسادة ، وأخيراً أرسل الإمبراطور ماكسمليان ، وكان يعطف على قضيتهم وإن لم يرض عن توسلهم بالعنف ، قوة صغيرة من الجنود وأرغمتهم على السلم على مضض . ولكن المسرح كان معداً لحرب الفلاحين وللشيوعية اللامعمدانية فى الإصلاح الدينى بألمانيا .

وفى غضون ذلك كانت تقوم فى عالمى الصناعة والتجارة بألمانيا ثورة أملاها الأمر الواقع . كانت معظم الصناعات لا تزال يدوية وإن تزايدت عليها سيطرة رجال الأعمال الذين يقدمون المواد الخام ويمولونها ويشترون الإنتاج النهائى ويبيعونه ، وكانت صناعة التعدين تتقدم بسرعة وجنيت أرباح عظيمة من استخراج الفضة والنحاس والذهب ، وأصبحت سبيكة الذهب

أو الفضة عندئذ وسيلة محببة لاختزان الثروة ، ومكنت حقوق التعدين لأمراء الإقليم — وبخاصة أمير ساكسونيا وكان يحمى لوثر — مكنت بعضهم من مقاومة البابا والإمبراطور معا . وسكت نقود فضية يعتمد عليها وتضاعف عدد النقد وتم أو كاد التوصل إلى اقتصاد يرتكز على النقد ، وأصبحت حيازة سبيكة فضية أمراً شائعا فى الطبقتين الوسطى والعليا ، وعرضت بعض الأسر مناضد أو مقاعد من الفضة الخالصة وتراكمت فى الكنائس الألمانية ، أوعية وكئوس قداس وجفان بل وتماثيل من الفضة أو الذهب ، وجعلت الأمراء يميلون إلى إصلاح دينى يسمح لهم بتصفية الثروة الكنسية . وقد تعجب أنياس سيلفيوس عام ١٤٥٨ عندما رأى أصحاب حانات فى ألمانيا يقدمون بانتظام الشراب فى كئوس فضية وتساءل : « أية امرأة ، لا بين طبقة النبلاء فحسب بل بين طبقات الدهماء ، لا تتألق بالتحلى بالذهب ؟ — وهل أذكر شكائم الخيول المزينة بنقوش بارزة من خالص الذهب و . . » . أسلحة وخوذات تلمع بالذهب ؟ » وأصبح الممولون الآن قوة سياسية عظيمة ، واستبدل بمقرضى النقود من اليهود مؤسسات تديرها عائلات مسيحية من الولزين والهوخستيتر والفوجر ، وكلهم من أوجسبورج وكانت عاصمة المال فى العالم المسيحى فى نهاية القرن الخامس عشر . ولقد أصبح جوهان فوجر ، وهو ابن نساج ، تاجرا للمنسوجات وترك عند وفاته (عام ١٤٠٩) ثروة صغيرة من ٣ر٠٠٠ فلورين (٧٥ر٠٠٠ دولار ؟) وتوسع ابنه جاكوب فى العمل وعندما مات (١٤٦٩ ترك ثروة تعد السابعة بين الثروات فى أوجسبورج ، واستطاع أولريخ وجورج وجاكوب الثانى أبناء جاكوب أن يرقوا بالمؤسسة إلى مكان الصدارة بتقديم المال إلى الأمراء فى ألمانيا والنمسا وهنغاريا ، وذلك فى مقابل الحصول على دخول المناجم أو الأراضى أو المدن . ومن هذه الاستثمارات التى تعتمد على المضاربة جمع آل فوجر أرباحا فاحشة وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانوا أغنى أسرة فى أوروبا .

وكان جاكوب الثانى عبقرى الأسرة الذى لا يبارى ، فقد كان مقداما قاسيا مجدا . ودرب نفسه ، على طريقة الرواقيين ، بدراسة كل مرحلة من مراحل العمل وكل تقدم فى مسك الدفاتر والصناعة والمتاجرة والتمويل . وطالب بالتضحية بكل شىء فى سبيل العمل ما عدا الأسرة نفسها وبإخضاعه كل فرد من آل فوجر فى سبيل مصلحة الأسرة وأسس المبدأ القائل بألا سلطة لأحد فى المؤسسة سوى فرد من آل فوجر ولم يسمح قط لعلاقاته السياسية بالتأثير فى قروضه . وكون اتحادات مع المؤسسات الأخرى للتحكم فى سعر المنتجات المختلفة ومبيعاتها ، ولذلك عقد عام ١٤٩٨ هو وإخوته اتفاقاً مع تجار أوجسبورج يقضى « بتضييق الخناق » على سوق البندقية فى النحاس ورفع السعر . وفى عام ١٤٨٨ أقرضت الأسرة ١٥،٠٠٠ فلورين للأرشيدوق سجيسموند النمساوى . وتسلمت ضمانا للقرض كامل إنتاج مناجم الفضة فى شفارتز إلى أن يتم سداد القرض . وفى عام ١٤٩٢ اتفق آل فوجر مع آل تورزوس من كراكا وعلى قيام اتحاد (كارتل) لاستغلال مناجم الفضة والنحاس فى هنغاريا وللحفاظ على « أعلى سعر ممكن » للمنتجات ، وما أن حل عام ١٥٠١ حتى كان آل فوجر يقومون بمشروعات واسعة التعدين فى ألمانيا والنمسا وهنغاريا وبوهيميا وإسبانيا . وعلاوة على هذا فإنهم استوردوا المنسوجات وصنعوها وتاجروا فى الأقمشة الحريرية والقطيفة والفراء والتوابل وثمار الليمون والذخائر والمجوهرات ونظموا نقلا سريعا وخدمة بريدية خاصة ، وما أن حل عام ١٥١١ وأصبح جاكوب الثانى المدير الوحيد للمؤسسة حتى كانت أصولها قد وصلت إلى ١٩٦٫٧٩١ جيلدر . وفى عام ١٥٢٧ (بعد عامين من وفاته) قدر رأسمالها بمبلغ ٢٫٠٢١٫٢٠٢ جيلدر (٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار) — بواقع ربح سنوى قدره خمسون فى المائة خلال ستة عشر عاما .

ولقد حصل جانب من هذا الربح من علاقات آل فوجر بالأباطرة

والبابوات إذ قدم أولريخ فوجر قروضا لفردريك الثالث وأصبح جاكوب الثانى الوسيط الأول لماكسمليان الأول وشارل الخامس وقد تحقق امتداد سلطان آل هابسبورج فى القرن السادس عشر بفضل قروض آل فوجر وعلى الرغم من أن جاكوب لم يعبأ بتحديد الكنيسة للفوائد ومحاولات رجال الكنيسة أن يحددوا « ثمنا عادلا » لسلع المستهلكين فإنه ظل كاثوليكيا . وقدم القروض لرجال الدين للوفاء بنفقات ترقيتهم ، وحصل مع أولريخ (عام ١٤٩٤) على حق إدارة أموال البابا فى ألمانيا واسكنديناوة وبوهيميا وهنغاريا ، وكان جاكوب فوجر فى السنوات الأخيرة من عمره مواطنا مبجلا ومكروها فى ألمانيا ، وهاجمه بعض الكاثوليكين باعتباره مرابيا كما هاجمه بعض النبلاء بسبب رشوته لهم للظفر بمنصب أو نفوذ ، وبعض التجار لاحتكاراته التى أثارت حسدهم ، وسخط عليه كثير من العمال لإلغائه لوائح التجارة والمال فى العصور الوسطى ، ومعظم البروتستانت لتصديره الأموال الألمانية إلى البابوات . ولكن الأباطرة والملوك والأمراء والبطاركة بعثوا له بالرسل وخاطبوه كأنه أحد الحكام ورسم ديرر وبورجكمير وهولبين الكبير صورة شخصية له بدا فيها رجلا واقعيا بسيطا صارما ، وأنعم عليه ماكسمليان بلقب كونت الإمبراطورية ، وحاول جاكوب أن يكفر عما ارتكبه من خطايا بجمع ثروته ببناء ١٠٦ منزلا للفقراء من الكاثوليك بأوجسبرج[1] ، وأنشأ معبداً صغيرا فى كنيسة سانت أنا لتدفن فيه رفاته ومات بوسط جو مضمخ بالقداسة وخلف ملايين الجيلدرات ، ولم يعقب ذرية فقد حرمته الحياة أعظم عطاياها .

ويمكننا أن نقول إنه هو الوحيد الذى افتتح عصر الرأسمالية ونمو الاحتكارات الخاصة وسيطرة رجال الأعمال بأموالهم على السادة الإقطاعيين

---

(١) لا تزال هذه المستعمرة « فوجيراى » موجودة وهى تتقاضى اثنين وأربعين بفنيج (ستة وثمانين سنتا) من الأسرة كل عام .

الذين يملكون الأرض ، وكان التعدين وصناعة المنسوجات يرتكزان على أنظمة رأسمالية أى يشرف عليهما من يقدمون رأس المال — فى نهاية القرن الخامس عشر ، على نسق زعامة الفلاندرز وإيطاليا فى صناعة المنسوجات قبل ذلك بمائة عام .

وكان الرأى السائد فى العصور الوسطى هو أن الملكية الفردية وديعة عامة إلى حد ما : فحقوق المالك تحددها احتياجات الجماعة التى أتاح نظامها له الفرص والتسهيلات والحماية . وربما فى ظل القانون الرومانى — وكان قد حجب وقتذاك الفقه الألمانى — بدأ المالك يرى أن ملكيته مطلقة وشعر بأن له الحق فى أن يفعل بملكه ما يشاء . ولذلك لم يبد من الخطأ لآل فوجر وآل هوخستيتر وغيرهم من « أمراء التجار » أن (يضيقوا الخناق » على إنتاج ثم يرفعوا سعره أو يكونوا اتحادات (كارتلات) لتحديد الناتج والتحكم فى التجارة أو أن يمارسوا الاستثمارات بحيث يغشون صغار حاملى الأسهم . وفى عديد من الأمثلة نجد تاجرا يضع وكلاءه على أبواب المدينة ومعهم أوامر بأن يشتروا كل البضائع الواردة من صنف معين حتى يبيعها بالسعر الذى يفرضه فى المدينة . وقد اشترى امبروز هوخستيتر كل ما أمكن الحصول عليه من الزئبق ثم رفع سعر بيع التجزئة بمقدار ٧٥ فى المائة . واشترت شركة ألمانية فلفلا من ملك البرتغال بمبلغ ٦٠٠ر٠٠٠ جيلدر بسعر يزيد على السعر العادى على شريطة أن يتقاضى الملك سعراً أعلى من كل مستوردى الفلفل من البرتغال إلى ألمانيا . وعن طريق هذه الاتفاقات والاحتكارات من ناحية ، وعن طريق تزايد الثروة وزيادة الطلب على البضائع من ناحية أخرى ، وعن طريق ارتفاع الوارد من المعادن النفيسة من أوروبا الوسطى وأمريكا ارتفعت الأسعار بين عامى ١٤٨٠ و ١٥٢٠ بسرعة لانظير لها إلا فى قرننا هذا : وقال لوثر شاكيا : « فى خلال زمن قصير وبسبب الربا والشح أصبح من كان فى وسعه سابقا

أن يعيش بمبلغ مائة جيلدر لايستطيع الآن أن يعيش بمبلغ مائتين » . وهى حكاية رويت أكثر من مرتين .

وقد شهدت العصور الوسطى تفاوتا شاسعاً فى السلطة السياسية ، وأضاف عصر آل فوجر الجديد تباينا اقتصاديا لم تعرفه أوروبا منذ عهد أصحاب الملايين والعبيد فى إمبراطورية روما ، فبعض التجار الرأسماليين فى أوجسبرج أو نورمبرج كان عنـــد كل منهم ثروة تعادل ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك (٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ؟) واشترى الكثيرون مكانة بين الأرستقراطية صاحبة الأرض وارتدوا دروعا عليها شعارهم وعوضوا احتقار الأشراف « بإسراف مبالغ فيه » ، فقد كان جواكيم هوخستيتر وفرانزباو مجارتنر ينفقان ٥٫٠٠٠ فلورين (١٢٥٫٠٠٠ دولار ؟) على مأدبة واحدة أو يقامران فى لعبة واحدة بمبلغ ١٠٫٠٠٠ فلورين ، وقد أثارت بيوت رجال الأعمال الأغنياء الفاخرة الأثاث والزخارف الفنية استياء طبقة النبلاء ورجال الدين والدهماء على حد سواء ، وانضم الوعاظ والكتاب والثوريون فى ثورة عارمة ضد المحتكرين ، وطالب جايلر فون كايزرسبرج بأن « يطاردوا كالذئاب ما داموا لا يخشون الله ولا الناس وينشرون المجاعة والعطش والفقر » . وميز أولريخ فون هوتن أربعة طوائف من اللصوص : التجار وفقهاء القانون والقسس والفرسان ، ورأى أن التجار إنما هم أخطر هؤلاء اللصوص جميعا . « وطالب مجلس الريخستاج فى كولون كل السلطات المدنية بأن تتخذ الإجراءات » بحزم وشدة (ضد كل الشركات الرأسمالية التى تتوسل بالاحتكار والربا) . وتكرر صدور مثل هذه القوانين من مجالس نيابية أخرى ولكن بلا جدوى ؛ فقد كان بعض المشرعين أنفسهم يستثمرون أموالهم فى المحلات التجارية الكبرى ، وهدأت سورة غضب حماة القانون بمنحهم أسهما ، كما أن كثيراً من المدن ازدهرت بنمو التجارة الحرة .

كانت ستراسبورج وكولمار وميتز وأوجسبورج ونورمبرج وأولم وفيينا

وراتيسبون (رجنزبورج) وماينز وسبيار وفورمز وكولون وترير وبريمن ودورتموند وهامبورج وماجديبرج ولوبيك وبرسلاو مراكز نشاط اقتصادى مزدهرة بالصناعة والتجارة والآداب والفنون . وكانت هى وسبعة وسبعون مدينة أخرى « مدنا حرة » أى مدنا تسن قوانينها الخاصة وترسل ممثلين لها للمجالس النيابية الإقليمية والإمبراطورية ولا تخضع سياسياً إلا للإمبراطور ، وكان بدوره مدينا لها بالعون المالى أو العسكرى إلى حد لا يستطيع معه أن يقيد حرياتها ؛ وعلى الرغم من أن هذه المدن كانت تحكمها طوائف حرفية يسيطر عليها رجال الأعمال فإن كل واحدة منها تقريبا كانت بمثابة حكومة تستهدف الصالح العام . وطبقا للطريقة التى تراعى مصلحة الجماعة وذلك إلى الحد الذى كانت فيه تنظم الإنتاج والتوزيع والأجور والأسعار وصفة السلعة بقصد حماية الضعيف من القوى وتوفير احتياجات المعيشة للجميع . ونحن نطلق عليها الآن بلادا[1] لا مدنا طالما أن عدد السكان لم يتجاوز فى أى منها ٥٢٫٠٠٠ نسمة ومع ذلك فقد كانت آهلة بالسكان كما كان الحال عليه قبل منتصف القرن التاسع عشر وأكثر ازدهاراً من أى عهد قبل جرته ، وإينياس سيلفيوس وهو إيطالى مزهو بنفسه كتب عنها عام ١٤٥٨ يقول :

لم تكن ألمانيا أغنى ولاأشد تألقا منها قبل اليوم ... ويمكن أن يقال دون مبالغة أنه ليس فى أوروبا بلد تبزها أو تفوقها فى جمال مدنها فهى تبدو طلية جديدة كأنها شيدت بالأمس ولن تجد حرية زائدة مثل هذه فى أية مدن أخرى . .

ولا يمكن أن نجد مدينة فى أوربا أكثر فخامة من كولون بكنائسها العجيبة ومبنى البلدية فيها وأبراجها وقصورها ومواطنيها المبجلين من أوساط

---

(١) جمع بلدة لتمييزها عن المدينة .

الناس وجداولها العظيمة . . . كما أنه ليس ثمة مدينة فى العالم تبز أوجسبورج فى الثروة . وفى فينا قصور وكنائس تحسدها عليها حتى إيطاليا » .

ولم تكن أوجسبورج مركزا للمال فى ألمانيا فحسب بل كانت أيضاً الحلقة التجارية الرئيسية التى تربط بينها وبين إيطاليا المزدهرة آنذاك . وتجار أوجسبورج هم الذين كان لهم الفضل فى بناء وإدارة الفوندا كوتيديسكو فى البندقية التى زين جدرانها جيورجيونى وتيتيان بصورهما الجصية ، وكانت أوجسبورج وثيقة الاتصال بإيطاليا حتى أنها رددت صدى النهضة الإيطالية ، وآزر تجارها الأدباء والفنانين وأصبح بعض الرأسماليين بها مثالا يحتذى فى السلوك والثقافة إن لم يكن فى الأخلاق . ومن ثم نجد أن كونراد بوليتنجر ، وهو مأمور أو عمدة فى سنة ١٤٩٣ ، كان دبلوماسياً وتاجرا وأديباً وفقيهاً وعالماً باللغتين اللاتينية واليونانية وأثريا ورجل أعمال .

وكانت نورمبرج مركزا للفنون والحرف اليدوية أكثر منها للصناعة أو المال على نطاق واسع ، وكانت طرقاتها لا تزال ملتوية حسب ما كان متبعا فى القرون الوسطى تظللها طبقات بارزة أو شرفات ، وأسقفها المغطاة بالقرميد الأحمر وجملوناتها العالية القمة ومشرباتها تكون صورة غير متناسقة فى مهادها الريفى وجدول بجنيتز الضخم . ولم يكن الناس بها فى بحبوحة من العيش كما هم فى أوجسبورج ولكنهم مبتهجون دمثو الخلق ويحبون اللهو والتبذل فى مهرجانات مثل الكرنفال الذى يشتركون فيه كل عام ويرتدون فيه الأقنعة وأزياء التنكر ويرقصون . وهناك أخذ هانز ساكس وكبار المغنين ينشدون ألحانهم المرحة ، وارتقى البرخت ديرر بالتصوير والحفر الألمانيين إلى ذروتهما ، وهناك قام صاغة الذهب والفضة شمال الألب بصنع زهريات غالية الثمن وأوعية للكنيسة وتماثيل صغيرة ، وهناك قام العاملون بالأشغال المدنية بتشكيل الف تكوين للنبات والحيوان

والإنسان من البرنز أو شكلوا الحديد فى سياجات أوستائر جميلة ، وهناك كان قاطعو الخشب من الكثرة إلى حد يجعلنا نعجب كيف تيسرت لهم سبل العيش . وأصبحت كنائس المدن مخازن ومتاحف للفن لأن كل طائفة حرفية أو نقابة أو أسرة ثرية كانت ترسل عملا فنيا جميلا إلى مزار قديس يحمى الزمار . واختار رجيومونتانوس مدينة نورمبرج موطنا له وقال : « لأنى أجد هناك دون صعوبة كل الأدوات الخاصة بعلم الفلك وإنه لأيسر لى هناك أن أظل على صلة بالمتعلمين فى كل البلاد لأن نورمبرج ، بفضل رحلات تجارها المستمرة يمكن أن تعد مركزا لأوروبا . ومن مميزات نورمبرج أن أشهر تجارها فيليبالد بيركهايمر كان أيضا عالما بالإنسانيات متحمسا وراعيا للفنون وصديقا حميما لديرر ، وقد أطلق ارازموس على بيركهايمر : « فخر ألمانيا العظيم » .

وعكرت صفو التجارة بين ألمانيا وإيطاليا رحلات داجاما وكولمبس وسيطرة الترك على بحر ايجة وحروب ماكسمليان مع البندقية ، فانتقلت الصادرات والواردات الألمانية شيئاً فشيئاً على طول الأنهار الكبيرة إلى بحر الشمال وبحر البلطيق والمحيط الأطلسى وانتقلت الثروة والسلطان من أوجسبورج ونورمبرج إلى كولون وهامبورج وبريمن وإلى أنتورب بصفة خاصة . وشجع آل فوجر وآل ويلز هـــذا الاتجاه بأن جعلوا من أنتورب مركزا رئيسيا لعملياتهم . وأدت حركة المال والتجارة الألمانيين نحو الشمال إلى فصل شمال ألمانيا عن الاقتصاد الإيطالى ودعمت مركزها بحيث استطاعت حماية لوثر من الإمبراطور والبابا . ولعل جنوب ألمانيا ظل مخلصا للكاثولوكية لأسباب مغايرة .

٢ ـ الدولة

كيف كانت ألمانيا تحكم فى هذا العصر التشكيلى الحرج ؟

لقد كان الفرسان ، أو أبناء الطبقة النبيلة الدنيا ، الذين حكموا الريف بصفتهم أتباعا للسادة الإقطاعيين ، يفقدون مركزهم العسكرى والاقتصادى والسياسى . وكانت فرق الجنود المرتزقة الذين يستأجرهم الأمراء أو المدن ، والمجهزين بالأسلحة النارية والمدافع ، تبيد فرق الفرسان الذين كانوا يلوحون بالسيوف فى عجز وقصور ، وكانت الثروة التجارية ترفع الأسعار والنفقات وتتفوق على ملكية الأرض باعتبارها مصدرا للسلطان ، وكانت المدن توطد استقلالها والأمراء يركزون فى أيديهم السلطة والقانون . وثار الفرسان قليلا بالترصد للتجارة التى كانت تمر فى طريقهم ، وعندما احتج التجار والبلديات أكد الفرسان حقهم فى شن حروب خاصة . وقد وصف كومين ، ألمانيا فى هذا العهد بأنها تزخر بالقلاع التى يمكن فى أى وقت أن يتدفق منها « لصوص من البارونات » وأتباعهم المسلحون ، ويسلبون التاجر المسافر والفلاح على السواء . وجرت عادة بعض الفرسان أن يقطعوا الأيدى اليمنى لمن يسلبون من التجار . وعلى الرغم من أن جيتز فون برليخينجن فقد هو نفسه يده فى خدمة أميره ، فقد استبدل بها يدا حديدية ، وتزعم عصابات من الفرسان ، لا لمهاجمة التجار فحسب ، بل لمهاجمة المدن أيضاً ، « نومبرج — دارمستادت وميتز ومايز (١٥١٢) . ووجه صديقه فرانز فون سيكنجن تهما ضد مدينة ورمس ونهب ضواحيها وقبض على أعضاء مجلس الشورى فيها وعذب عمدتها وقاوم كل المحاولات التى قامت بها الفرق الإمبراطورية للقبض عليه ولم يكن من المستطاع إخضاعه إلى حين إلا عندما تلقى منحة سنوية ليخدم الإمبراطور . وانضمت اثنتان وعشرون مدينة فى سوابيا — وبصفة خاصة أوجسبرج وأولم وفرايبورج وكونستانس إلى

الطبقة الرفيعة من النبلاء لإعادة تكوين عصبة سوابيا (١٤٨٨) وهذه المدن وغيرها من الاتحادات كبحت جماح الفرسان اللصوص ونجحت فى أن تعلن عدم شرعية الحرب الأهلية ، ومع ذلك فإن ألمانيا كانت قبيل عهد لوثر مسرحا للفوضى الاجتماعية والساسية ، فقد كان يسودها حكم شامل للقوة » .

وأسهم الأمراء الزمنيون ورجال الدين اللذين تصـــدروا القلاقل فيها بجشعهم وعملاتهم ورسوم جماركهم المختلفة وتنافسهم المضطرب على الثروة والنصب وتشويههم للقانون الرومانى ، وذلك لكى يمنحو أأنفسهم سلطة مطلقة أو تكاد على حساب الشعب والفرسان والإمبرطور . وتصرفت بعض الأسر تصرف الماوك غير المسئولين من أمثال بيوت هوهنزولرن فى براندنبرج وفيتين فى ســاكسونيا وفيتلسباخر فى البلاتينات ودوقات فيرتتيمبرج ، فما باللك بآل هابسبرج فى النمسا . ولو كان سلطان الإمبراطور الكاثوليكى على الأمراء الألمان أعظم من هذا لفشلت حركة الإصلاح الدينى أو تأجلت ، ثم إن إعراض كثير من الأمراء عن روما كان اتجاها آخر نحو الاستقلال المالى والسياسى .

وأكدت شخصية الأباطرة فى هذا العهد ضعف الحكومة المركزية . وكان فردريك الثالث (حكم من ١٤٤٠ إلى ١٤٩٣) فلكيا وكيمائيا يغرم بهـــدوء حدائقه فى جراتز الذى يتطلع إليه البحاثة لدرجة أنه سمح لشلسوج هولشتين وبوهيميا والنمسا وهنغاريا بأن تنفصل عن الإمبراطورية ، ولكنه قام فى حوالى نهاية العام الثالث والخمسين من حكمه بخطوة لإنقاذها وذلك بخطبة مارى ، وريثة شارل الجسور دوق بورغنديا ، لابنه ماكسمليان . وعند ما حفر شارل لنفسه قبرا ثلجيا عام ١٤٧٧ ورث آل هابسبورج الأراضى الواطئة .

وبدأ ماكسمليان الأول (حكم من ١٤٩٣ إلى ١٥١٩) الإمبراطور المنتخب

والذى لم يتوج قط ، حكمه بكل ما يبشر بالنجاح . وابتهجت الإمبراطورية كلها لملامحه الجميلة وأخلاقه الطيبة ورقة مشاعره الوديعة وبشاشته الجياشة، وكرمه وشهامته وشجاعته ومهارته فى المبارزة والصيد ، وكأنه إيطالى من عصر النهضة ارتقى عرشاً ألمانيا . بل إن ماكيافيلى تأثر به ووصفه بأنه « أمير عاقل زكى يخشى الله ، وحاكم عادل ، وقائد عظيم ، يقتحم الأخطار ويتحمل المشقة كأصلب الجنود عودا . . . نموذج يحتذى لكثير من الفضائل الخلقية بأمير » .. ولكن « ماكس » لم يكن قائدا عظيما ، وكان يفتقر إلى الذكاء الخبيث المطلوب من أمير فى نظر ماكيافيلى كان يحلم باستعادة عظمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسترداد ممتلكاتها . السابقة ونفوذها فى إيطاليا فغزا شبه الجزيرة مرارا وتكرارا فى حروب لا طائل تحتها ، رفض مجلس الدايت ، وكان فى هذا عمليا ، أن يمولها . وسمح لنفسه بالتفكير فى خلع يوليوس الثانى القوى وتنصيب نفسه بابا وإمبراطورا فى الوقت نفسه . وقد برر (مثل زميله المعاصر شارل الثامن ملك فرنسا) مطامعه الإقليمية بأنها تمهيد ضرورى لهجوم ساحق على الأتراك ، ولكنه عجز عن وضع خطة مدعمة من الناحيتين الدستورية والمالية . وكان لا يستطيع أن يحقق بالوسائل كما يتمنى الغايات ، وكان فى بعض الأوقات فقيرا إلى الحد الذى كان يعوزه المال لسداد ثمن عشائه . وسعى لإصلاح الإدارة فى الإمبراطورية ولكنه انتهك إصلاحاته ذاتها فماتت معه . وكان يفكر كثيرا فى مدى سلطة آل هابسبورج وبعد أن لاقى أكثر من فشل فى الحرب عاد إلى سياسة والده القائمة على الزيجات الدبلوماسية . وعلى هذا فإنه قبل عرض فرديناند بخطبة جوانا إلى ابنه فيليب وكانت ضعيفة العقل إلى حد ما ولكنها قدمت إسبانيا دولة صداقا لها . وفى عام ١٥١٥ خطب لحفيدته مارى وحفيده فرديناند ، للويس وأن ابن وابنة لاديسلاس ملك بوهيميا وهنغاريا ، وقتل لويس فى موهاكس (١٥٢٦) وأصبح فرديناند ملكا على بوهيميا وهنغاريا (بقدر ما سمح الأتراك) وبلغ سلطان آل هابسبرج أوسع مداه .

وكانت أحب سمات ماكسمليان عشقه وتشجيعه للموسيقى والتعليم والأدب والفن . وأكب فى حماس على دراسة التاريخ والرياضيات واللغات . ولقد ثبت لنا أنه كان فى وسعه أن يتحدث بالألمانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية والإسبانية والوالونية والفلندية والإنجليزية ، ويقال إنه تحدث فى حملة حربية واحدة مع سبع قواد أجانب بلغاتهم السبعة المختلفة . ومزج لهجات جنوب وشمال ألمانيا فى لغة ألمانية يفهمها الجميع وهى التى أصبحت لغة الحكومة الألمانية وكتاب لوثر المقدس والأدب الألمانى ، وذلك بفضل جهوده والاقتداء به إلى حد ما . وحاول ، وهو بنجوة من الحروب ،أن يكون مؤلفاً، وترك مصنفات عن فن الدروع والمدفعية والعمارة والصيد وسيرته الخاصة ، وفكر فى اقتناء مجموعة تستوعب مخلفات ونقوشاً من ماضى ألمانيا ولكن أعوزته الأموال من جديد . واقترح على البابوات إصلاح التقويم ، وقد حققوا فكرته بعد ثمانين عاما . وأعاد تنظيم جامعة فينا وأسس كراسى أستاذية جديدة للقانون والرياضيات والشعر والبلاغة ، وجعل من فيينا أزهر مركز للتعليم فى أوروبا لفترة ما . ودعا علماء الإنسانيات الإيطاليين إلى فينا ، وعهد إلى كونرادوس سلتس أن يفتح هناك أكاديمية للشعر والرياضيات . وناصر علماء للإنسانيات مثل بويتنجر وبيركهايمر وجعل من روتخلين Reuchlin المضطهد كونت بالاتاين الإمبراطورى . ومنح مكافآت لبيتر فيشر وفايت ستوس وبورجكمير وديرر والفنانين الآخرين الذين تألقوا فى عهده . وأمر بإقامة قبر مزخرف فى انزبروك ليضم رفاته ، وقد ترك دون أن يتم بناؤه عند وفاته ولكنه أتاح فرصة لتماثيل بيتر فيشر الجميلة لتيودوريك وأرثر . ولو كان ماكسمليان عظيما بقدر عظمة أفكاره لكان ندا للإسكندر وشارلمان .

وفى آخر سنة من حكم الإمبراطور رسم ديرر صورة أمينة له — تمثله منهوك القوى وقد انزاحت عنه الأوهام ، وكسر شوكته بؤس الزمن المثير للجنون . وقال هذا الرجل الذى كان يوماً روحاً مرحة « ليس فى الأرض

مسرة لى . وا أسفاه على أرض ألمانيا السكينة » ولكنه بالغ فى الحديث عن فشله ، فقد ترك ألمانيا والإمبراطورية (ولو لم يكن هذا إلا عن طريق التنمية الاقتصادية) أقوى مما وجدهما عليه إذ ارتفع عدد السكان وانتشر التعليم وبدأت فيينا تصبح فلورنسا أخرى . وسرعان ما صار حفيده ، الذى ورث نصف أوروبا الغربية ، أقوى حاكم فى العالم المسيحى .

٣ — الألمـــان (١٣٠٠ — ١٥١٧)

ربما كانوا إبان ذلك العهد أصح الشعوب أبداناً وأقواهم جسداً وأشدهم حيوية فى أوروبا، فإنهم ، كما نراهم فى لوحات فولجيموت ودير وفى صور كراناخ وهولبين ، أناس أقوياء البنية غلاظ الأعناق كبيرو الرؤوس ، لهم قلوب الأسود ، على تمام الأهبة لالتهام العالم ، واستساغته بشراب الجعة . كانوا أجلافا ولكنهم ظراف تخفف من ورعهم نزواتهم الشهوانية . وكان فى وسعهم أن يكونوا غلاظ الأكباد كما تدل على ذلك أدوات التعذيب المروعة التى اعتادوا استخدامها مع المجرمين ؛ ولكنهم مع ذلك كانوا رحماء كرماء قلما عرضوا تزمتهم الدينى بوسائل بدنية ، إذ لقيت محاكم التفتيش فى ألمانيا مقاومة باسلة وكان نصيبها القمع عادة . لقد جبل الألمان بنفوسهم القوية على المرح الذى يتسم بإدمان الشراب أكثر مما يتسم بالفطنة الجافية ، ولقد أدى هذا كله إلى تبلد حسهم بالمنطق والجمال وحرمهم من ظرف العقلية الفرنسية أو الإيطالية ودهائها وتعثرت نهضتهم الهزيلة فى غمرة حماستهم الزائدة لتفسير الكتاب المقدس ومع ذلك فقد كان عندهم إصرار ثابت وصناعة منظمة وشجاعة فائقة فى الفكر الألمانى مكنتهم من كسر شوكة سلطان روما وأتاحت لهم فرصة أن يصبحوا أعظم علماء فى التاريخ . وهم شعب نظيف بالقياس إلى غيرهم من الأمم فالاستحمام عادة وطنية . وكل بيت حسن التنسيق فيه حمام حتى فى المناطق الريفية . والحمامات العامة العديدة توفر أكثر من حمام

إذ يستطيع الرجال هناك أن يحلقوا ذقونهم وتستطيع النساء أن يصففن شعورهن كما كانت، توفر فيها ضروب مختلفة من التدليك وكان يسمح فيها بالشرب والمقامرة ويمكن أن يجد فيها كل من يضيق ذرعا بالزوجة الواحدة خلاصاً . وكان الناس من الجنسين يستحمون عادة معاً وهم يرتدون ملابس محتشمة وإن لم تكن هناك قوانين تحرم المغازلة ، ولقد قال أحد الدارسين الإيطاليين بعد أن زار بادن — بادن عام ١٤١٧ : « ليست هناك فى العالم حمامات أكثر ملاءمة من هذه لإنجاب النساء » .

ولا يمكن أن يتهم الألمان إبان ذلك العهد بأنهم من أنصار مذهب التطهر إذ كان حديثهم ورسائلهم وأدبهم ومرحهم تتسم أحيانا بالجفاء إذا قيست بمعايير عصرنا، ولكن هذا يتفق مع قوة أبدانهم وأرواحهم، فهم من جميع الأعمار يشربون ويفرطون فى ممارسة الجنس إبان شبابهم . وكانت مدينة ارفورت عام ١٥٠١ فى نظرلوثر الورع لا تفضل ماخوراً أومشربا للجعة . ولقد وافق الحكام الألمان — من رجال الدين ومن العلمانيين على السواء على رأى سانت أوجستين والقديس توما الأكوينى بأنه يجب أن يسمح بالبغاء إذا كانت النساء بمنأى عن الإغراء أو الاغتصاب . وكانت بيوت البغاء تحصل على ترخيص وتفرض عليها ضريبة . وإنا لنقرأ عن أساقفة ستراسبورج وماينز الذين كانوا يحصلون على دخول من المواخير بل إن أسقف فيرتسبورج أعطى ماخوراً تابعاً للبلدية إلى جراف فون هينبرج باعتباره إقطاعية تدر دخلا . وكانت الضيافة لكبار الزوار تشمل وضع بيوت للسيدات تحت تصرفهم ، وقد كرم الملك سيجموند بهذا الامتياز فى برن (١٤١٤) وفى أولم (١٤٣٤) بإخلاص أرضاه كل الرضا حتى أنه شكر مضيفه علنا من أجله ، والنسوة غير المرخصات كنّ ينشئن أحياناً بيوتاً غير قانونية، وفى عام ١٤٩٢ شكت البغايا المرخصات للعمدة من هذه المنافسة غير العادلة فحصلن عام ١٥٠٨ على إذن بمهاجمة البيوت غير القانونية وقمن

بذلك فعلا ، وكان التردد على بغى يقابل بالصفح باعتباره خطيئة مغتفرة ، وإن كانت طبيعية ، وذلك فى نظر القانون الأخلاقى السارى فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى ، ولعل انتشار الزهرى بعد عام ١٤٩٢ جعل منه وباء فتاكا .

وكان الزواج اتحادا بين الملكيات كما هو الشأن فى كل مكان آخر والحب يعد نتيجة طبيعية للزواج لا سبباً معقولا له . وكانت الخطبة ملزمة كالزواج والزفاف يتم فى حفـــلات مترفة بين جميع الطبقات . وربما استمرت الاحتفالات أسبوعاً أو اثنين وكان شراء الزوج يكلف غاليا كالاحتفاظ بالزوجة . وكان للذكر نظرياً سلطة مطلقة ولكنها كانت أكثر واقعية فى الأفعال منها فى الكلام . ونلاحظ أن السيدة ديرر كان لديها كلام كثير تقوله لزوجها . وقد كانت نساء نورمبرج من الجرأة بحيث اجتذبن الإمبراطور ماكسمليان وهو نصف عار من الفراش وألقين غطاء حول جسمه ثم استقبنه فى رقصة ليلية مرحة إلى الشارع .

وتذهب أسطورة قديمة إلى أن بعض الرجال من الطبقات العليا فى القرن الرابع عشر بألمانيا كانوا يضعون حزاماً للعفة « من الحديد حول وسط زوجاتهم وأفخاذهن ويغلقونه بقفل ويأخذون معهم المفتاح وذلك عند ما يسافرون فى رحلات يغيبون فيها طويلا عن الوطن . وثمة آثار لهذه العادة فى البندقية بالعصور الوسطى فى فرنسا وفى القرن السادس عشر وإن كانت الزوجة أو العشيقة تلبس الحزام طواعية وتعطى المفتاح للزوج أو العشيق ضمانا لإخلاصها للزوج أو العشيق .

وازدهرت حياة الأسرة . ويحصى سجل تاريخى بارفوت ثمانية أو عشرة أولاد لكل زوجين فى المعدل ولم تكن الأسرة التى تضم خمسة عشر ولدا بالنادرة ، وهذه الأعداد تشمل أبناء السفاح لأن الأطفال غير الشرعيين ، الذين كثروا كانوا يؤخذون عادة إلى بيت الوالد بعد زواجه . وشاع استخدام الألقاب فى القرن الخامس عشر وكثيراً ما أشارت

إلى مهنة السلف أو إلى موطنه الأصلى وإن كانت بين آن وآخر تجمد دعابة لحظة فى صراحة الزمن . وكان يراعى الضبط والحزم فى البيت وفى المدرسه ، بل ان ماكس الذى صار امبراطورا فيما بعد كثيراً ما تلقى الصفعات ، ويبدو أن هذا لم يسبب ضررا إلا للأب أو المدرس . وكانت البيوت الألمانية وقتذاك (١٥٠٠ م) أكثر البيوت راحة فى أوربا إذ كانت درجاتها متسعة ولها درابزين متين وفيها أثاث ضخم ومقاعد وثيرة وخزائن منحوتة ونوافذها من الزجاج الملون وأسرة لها كلة وجدرانها مطنفسة وأرضيتها مكسوة بالسجاد وفيها مواقد منبعجة ورفوف تزخر بكتب أو أزهار أو آلات موسيقية أو عليها طبق فضى ومطابخ تتألق بكل الأوعية الصالحة لإقامة مأدبة ألمانية .

وشيدت البيوت من الخارج فى معظمها من الخشب ، وكثيراً ما شبت فيها الحرائق ، وكانت الطنف المتدلية والشرفات تظلل الطرقات ، ولم يكن فى المدن الكبيرة إلا قليل من الطرقات المرصوفة ، ولم تعرف إنارة الشوارع إلا فى ليالى الأعياد وكانت الحياة خارج البيوت غير مأمونة بالليل . وكان صغار المجرمين ينافسون فى الكثرة الخنازير والبقر التى كانت تهيم فى الطريق على غير هدى . ولم تكن هناك شرطة نظاميون ، وكانت توقع عقوبات صارمة لردع الجريمة فقد كانت عقوبة السرقة الموت أو قطع الأذنين فى حالة السرقة الخفيفة . وكانت تقطع ألسنة الكفار والمجدفين أما المنفيون الذين يعودون إلى نومبرج دون مبرر شرعى فكانت تسمل عيونهم . وكانت النساء اللاتى يقتلن أزواجهن يدفن أحياء أو يعذبن بملاقط تسخن إلى درجة الاحمرار ثم يشنقن . ومن بين آلات التعذيب التى عرضت فيما مضى فى شلوس أو قلعة نورمبرج صناديق ممتلئة بأحجار مدببة يسحق بها جسد الضحية وتروس تمد بها أطرافها ومواقد لحرق كعوب أقدامها وإطارات مدببة من الحديد لتثنيها من الجلوس أو الاستلقاء أو النوم ثم العذراء

الحديدية الملعونة التى كانت تستقبل المحكوم عليه بذراعين من الصلب وتحيطه بهما فى حضن شائك ثم ترخى ذراعيها وتدعه يسقط دامى الجسد من أثر اختراق المسامير محطم العظام ليموت موتا بطيئا فى جب تدار فيه مدى وقضبان مدببة .

وساوت الأخلاق السياسية الأخلاق العامة فى انحلالها ·فتفشت الرشوة وبلغت أقصاها فى قمة الكيان الاجتماعى ، وشاع الغش فى السلع وذلك على الرغم من دفن رجلين وهما على قيد الحياة فى نورمبرج لغشهما النبيـــذ (١٤٥٦) ، وكانت التجارة ــ التضحية بالأخلاق فى سبيل المال ــ قوية فى جميع الأعمار ، فالمال لا الإنسان هو مقياس كل شىء ، ومع ذلك فإن هؤلاء الأوساط المتزاحمين المتنافعين من المواطنين تبرعوا بمبالغ كبيرة على سبيل الإحسان . وكتب لوثر : « فى العهود البابوية كان الناس يتبرعون بكلتا اليدين فى جذل وبولاء عظيم . كانت السماء تمطر صدقات وإنشاءات وهبات . كان أجدادنا من السادة والملوك ومن الأمراء وغيرهم من الشعب ، يتبرعون بسخاء ، أجل ، إلى درجة تغمر كل شىء ، للكنائس والأبرشيات والمنح الدراسية والمستشفيات ، ومن دلالات هذا العهد الدنيوى أن كثيراً من تركات المحسنين أوقفت » لا على الهيئات الدينية فحسب » ولكن على مجالس المدن لتوزيعها على الفقراء .

وأصبحت الاخلاق أشد جفاء فى فرنسا وإنجلترا وفى ألمانيا أيضا عند ما خلفت حكومة السراة بالمال حكومة الأرستقراطية بالميلاد فى السيطرة على الاقتصاد . وكان السكر رذيلة وطنية وقد ندد به كل من لوثر وهوتن على الرغم من أن هوتن فضله على « مخاتلة الإيطاليين وسرقة الأسبان وزهو الفرنسيين » ولعل بعض الانغماس فى الشراب يرجع إلى التوابل الحريفة التى استخدمت فى إعداد وجبات الطعام . ولقـــد أعوز

التهذيب آداب المائدة ووصلت « الشوك » إلى ألمانيا فى القرن الرابع عشر ومع ذلك فقد آثر الرجال والنساء أن يستخدموا أصابعهم فى تناول الطعام . بل ان واعظا فى القرن السادس عشر أدان « الشوك » باعتبارها مخالفة لإرادة الله « الذى لو كان يريد منا أن نستخدم الشوك لما منحنا أصابع » .

وكان اللباس فخما ، أما العمال فكانوا يكتفون بارتداء قلنسوة أو قبعة من اللباد وقمصان قصيرة وسراويل متداخلة — أو تحشر فى أحذية طويلة الرقبة ، وكانت الطبقات الوسطى تضيف إلى هذه الملابس صديرية وسترة مفتوحة مبطنة أو تزين حوافها بالفراء . وكان ذوو الأنساب يدخلون فى منافسة محمومة مع جامعى الجلدرات فى روعة ثيابهم . وكانت قبعات الرجال عند هاتين الطبقتين عبارة عن لفائف معقدة متسعة من القماش الثمين تزين حافاتها أحيانا بالريش أو الشرائط أو اللآلئ أو الذهب ، أما القمصان فكانت من الحرير غالبا ، كما كانت الأثواب الخارجية الزاهية تبطن بالفراء وربما تخللتها خيوط من الفضة . وكانت الثريات من النساء يضعن على رؤوسهن تيجانا من الذهب أو قلانس مطرزة بالذهب ويضفرن شعورهن بخيط ذهبي ، وأما العذارى الحفيرات فكن يغطين رؤوسهن بمناديل من الموسلين يربطنها تحت الذقن .

وقد زعم جايلر فون كايزرسبرج أن النساء الأنيقات كن يمتلكن خزائن للملابس تقدر بنحو ٤٠٠٠ فلورين (١٠٠ر٠٠٠ دولار ؟) وكان الرجال يحلقون ذقونهم ويعنون بشعر رؤوسهم ويعنون بتعهد ضفائرهم . لاحظ خصلات شعر ديرر التى كانت موضع اعتزازه وخصائل شعر ماكسمليان الجميلة . واتخذت الخواتم شعارا على الطبقة الاجتماعية أو للتخييل بالانتماء إليها كما هو الحال الآن ، وقد قال كونرادوس سيلتس ان الأزياء تغيرت فى ألمانيا بسرعة أكبر منها فى أى مكان آخر ، وحدث هذا كثيراً

فى أزياء الرجاء وفى أزياء النساء . وربما فاق الرجال النساء فى فخامة الزى فى مناسبات الأعياد .

وكانت المهرجانات متعددة وهى استمرار لروح القرون الوسطى المولعة بالتظاهر وعرض المرح مع تأجيل العمل والتحلل من الوصايا العشر . وكان عيد الميلاد لا يزال يتسم بالمسيحية على الرغم مما صاحبه من الآثار الوثنية . وأما شجرة عيد الميلاد فإنها ابتدعت فى القرن السابع عشر .

وكانت كل مدينة تحتفل بمهرجان أو عيد لقديسها الحامى لها وكان الرجال والنساء يرقصون معا فى الشوارع ويسود المرح الجميع وكأنه أمر محتوم ، ولا يمكن لأى قديس أو واعظ أن يقلل من بهجة العربدة العنيفة . وكان الرقص يتحول أحيانا إلى جنون وبائى كما حدث فى متز وكولونيا واكس عام ١٣٧٤ أو فى ستراسبورج عام ١٤١٢ . كان بعض من يعانون من رقصة سانت فيتوس فى بعض هذه الحالات يلتمسون الشفاء من كانوا يعتقدون أنه مس شيطانى وذلك بالرقص حتى يسقطوا من الإعياء كما يفعل بعض الشبان المتهوسين اليوم . ووجد الرجال متنفسا لغرائزهم فى الصيد والقنص أو فى ممارسة رياضة المبارزة القاتلة . وكان آلاف الرجال والنساء يسافرون متذرعين غالبا بحجة التردد على مزار وينتقلون فى ابتهاج أليم على صهوة الجياد أو على ظهور البغال أو فى عربات أو على مقاعد تحمل على الأكتاف ويتحملون مشاق الطرق غير الممهدة والخانات القذرة . وكان بعض الأشخاص المرهفى الحس يسافرون كلما أمكنهم ذلك ، بالقارب على صفحة نهر الراين ونهر الدانوب أو على غيرهما من مجارى الماء فى وسط أوروبا . وما إن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت هناك خدمة بريدية متاحة للجميع تربط المدن الكبرى .

والكل معا فى الصورة رجل واحد من شعب قوى ناشط سعيد

لا يرضى بعد ذلك أن يرسف فى أغلال الإقطاع أو ظلم روما . وقد غلب بالاعتزاز بالقومية الألمانية كل انقسام سياسى ، وكبح جماح الأباطرة الذين رأوا أنفسهم فوق الوطن ، والبابوات الذين اعتقدوا أنهم فوق الطبيعة ، وهكذا قدر للإصلاح الدينى أن ينتصر على الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعلى البابوية أيضا . وفى عام ١٥٠٠ نشبت الحرب بين التيوتون والرومان وكان النصر مرة أخرى حليف ألمانيا كما حدث فى القرن الخامس من قبل .

٤ — نضج الفن الألمانى

وقدوم هذا العهد الجديد إنما يتجلى مظاهره فى الفن . وربما كان من العسير علينا أن نصدق هذه الحقيقة . ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن الطلب كان يتزايد على الفنانين الألمان فى أوربا بسبب تفوقهم فى كل فن حرفى ، فى أشغال الخشب والحديد والنحاس والبرونز والفضة والذهب والحفر والتصوير والنحت والعمارة ، وذلك فى أوج عصر النهضة الإيطالية من مولد ليوناردو (١٤٥٢) إلى وفاة رافاييل (١٥٢٠) . ولعل فيليج فابرى الأولمى قد كتب عام ١٤٨٤ بدافع الوطنية أكثر منه بدافع عدم التحيز وها هو يقول : « عندما يريد أى امرئ أن يحصل على قطعة مصنعة من الدرجة الأولى من البرونز أو الحجر أو الخشب فإنه إنما يستخدم حرفياً ألمانيا . لقد رأيت صانعى مجوهرات وصاغة وقاطعى أحجار وصانعى عربات من الألمان وهم ينتجون آثارا رائعة بين الغزاة المسلمين بل إنهم فاقوا اليونان وبزوا الإيطاليين فى الفن . وبعد نحو خمسين عاما اكتشف إيطالى آخر أن هذا لا يزال صحيحاً فقد كتب باولو جيوفو : « إن الألمان يكتسحون أمامهم كل شىء فى الفن ولا يسعنا نحن الإيطاليين الخاملين إلا أن نبعث لألمانيا فى طلب عمال مهرة » . واشتغل المهندسون المعماريون الألمان لحساب

فاورنسا وأسيسي وأورفييقو وسيينا وبرشلونة وبورجوس واستدعاهم ذوو الشأن لإتمام « القبة » فى كاتدرائية ميلان . وقد خلب فايت ستوس ألباب الأهلين فى مدينة كراكاو ، وحظى ديرر بتكريم البندقية ، واكتسح هولبين الصغير انجلترا .

وبلغت العمارة الكنسية أوجها فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر . ومع ذلك فإن أبناء جيل واحد من المواطنين فى ميونخ شيدوا على الطراز القوطى الأخير ، كنيسة سيدتنا وقاعة المدينة القديمة « أولدتاون » . وفى العقدين الأولين من القرن السادس عشر أتمت فرايبورج فى ساكسونيا (منصة جوقة الترتيل) وشيدت أوجسبرج بيعة آل فوجر ، وانتهت كاتدرائية ستراسبورج من بناء بيعة لورانس ، وأضيفت مشربية جميلة إلى مقر كاهن الأبرشية فى كنيسة سيبالدوسكيرس فى نورمبرج . وفى مجال عمارة البيوت فى هذا العهد شيدت أكواخ جذابة بأسقفها من القرميد الأحمر ، وطبقاتها العليا مصنوعة من الخشب ، وشرفاتها تجملها الأزهار وطنف رحبة تحمى النوافذ من الشمس أو الجليد . وهكذا واجه الألمان ، بما عرف عنهم من إقدام ، ارتفاع جبال الألب البافارية فى مناخ ميتنفالد الصعب بجمال بيوتهم البسيط الحبيب .

وكان النحت من أبعاد هذا العصر . فازداد عدد صغار النحاتين ، وكان من الممكن أن يلمعوا ويصبحوا نجوماً كبيرة لو قدر لهم أن يكونوا فى مجرة أقل إشراقاً : نيكولاوس جيرهارت وسيمون لاينبرجر وتيلمان ريمنشنيدر وهانز باكوفن ، وها هى نورمبرج وحدها تنجب فى جيل واحد ثالوثا من الأساتذة لا يكاد يزهم أحد فى عهد مماثل بأية مدينة فى إيطاليا . ولا شك أن حياة فايت ستوس تصلح أن تكون قصة مدينتين ؛ فقد تربى فى نورمبرج ، وحاز قصب الشهرة كمهندس وبان للجسور ومعمارى وحفار ونحات ومصور ، وعند ما بلغ الثلاثين من عمره ذهب إلى كراكاو وقام هناك بأحسن أعمال على الطراز القوطى الأخير المشع الذى عبر به عن ورع البولنديين وقابليتهم

للإثارة فى الوقت نفسه . وعاد إلى نورمبرج (١٤٩٦) ومعه ما يكفى من الأموال لشراء بيت جديد ولعقد قرانه على زوجة ثانية ، وقد أنجبت منه خمسة أطفال أضافتهم إلى أولاده الثمانية من زوجته السابقة . . . واعتقل فيت وهو فى أوج مجده لأنه شارك ، وربما كان هذا عن غير قصد ، فى عملية تزييف ، ودمغ بإحراق خديه معا وحرم عليـــه أن يغادر نورمبرج مرة أخرى ، غير أن الإمبراطور ماكسمليان عفا عنه وأعاد له حقوقه المدنية (١٥٠٦) ومع ذلك فإن ستوس ظل منبوذاً من المجتمع إلى أن انتهت حياته الطويلة المؤلمة . وفى عام ١٥١٧ حفر مجموعة كبيرة من الأعمال تمثل بشارة التحية الملائكية ، وأحاط تمثالين — يعدان من أعظم أعمال النحت الخشبى وأقربها إلى الكمال — بإكليل من الورود وأحاط هذا بسبحة ألحق بها سبع رصيعات كبيرة تصور أفراح العذراء وتوج الجميع ، وهى كلها من خشب شجر الزيزفون ، برسم غير جذاب للرب لورنز . وهو لا يزال يتدلى منها كأثر نفيس من مخلفات الأيام السعيدة فى المدينة الكبيرة . وحفر ستوس لكنيسة سيبالدسكريش صليباً من الخشب لا يضارعه أبداً صليب آخر من نوعه (١٥٢٠) . وفى هذا العام حصل له ابنه أندرياس ، بصفته رئيس دير رهبان الكارميليت بنورمبرج ، على أتعاب مقابل تصميم مذبح لكنيسة فى بامبرج . وبينما كان الفنان منهمكاً فى هذا العمل استولى أنصار الإصلاح الدينى على نورمبرج واستبدل بأندرياس راهب آخر لأنه ظل كاثوليكيا . وتشبث فيت نفسه بالعقيدة التيرة التى استلهمها فى فنه . وتوقف دفع أتعابه عن عملية المذبح وظل العمل ناقصاً . وأمضى ستوس السنوات العشرة الأخيرة من حياته كفيفاً يعتزل الناس وهو كظيم . فقد ماتت قبله زوجتاه وهجره أولاده ، ونبذه الناس فى عصر استغرقتهم فيه دراسة اللاهوت ، ولم يدركوا أنهم إنما كانوا يفقدون عام ١٥٣٣ أعظم حفار على الخشب فى التاريخ وهو فى الثالثة والتسعين .

وعاش فى نفس المدينة وفى هذا العهد فنان فى اشغال البرونز مبرز أيضاً فى أسلوبه وإن كان قد عاش حياة هادئة هانئة . وقد صور بيتر فيشر الأكبر نفسه فى كوة بجدار ، وتعد هذه الصورة من أشهر إنتاجه ، ونراه بها عاملا بسيطاً جادا قصير القامة مكتنز الجسم ، ذا لحية كاملة يرتدى مئزراً جلدياً حول وسطه ويمسك بيديه مطرقة وأزميلا . وقد كرس هو وخمسة من أبنائه أحد عشر عاماً (١٥٠٨ — ١٥١٩) لإتمام رائعتهم مقبرة زيبالد ، القديس الحامى لنورمبرج . وتكلف المشروع كثيراً ونفذت الأموال المخصصة له ، ومع ذلك لم يتم إنجاز العمل ، وعندئذ حث أنتون توخر المواطنين على الاكتتاب فى مبلغ ٨٠٠ جيلدر (٢٠٫٠٠٠ دولار ؟) كان يحتاجه للمشروع . وهذه الرائعة لا تثير الإعجاب لأول نظرة ، ويبدو أنها لا تضارع هيكل أوركانيا فى فلورنسا (١٣٤٨) ، ثم إن الحلزونات والدلفينات ، التى يرتكز على ظهورها البناء ، ليست على الأرجح حاملات لمثل هذا الثقل الهائل ، إلا أن فحصها عن قرب يكشف عن كمال مذهل فى أجزاء البناء . والتابوت الرئيسى المصنوع من الفضة مزين بأربع رسوم بارزة تمثل معجزات القديس . . وترتفع حوله الأعمـــدة البرونزية لظلة من الطراز القوطى ، عليها نقش دقيق من زخارف عصر النهضة ، وتتصل من أعلى بعقد معدنى جميل على الأعمدة ، حول القاعدة ، وفى الطنف ، وفى كوات الظلات العليا صور الفنانون سكانا حقيقيين من الوثنيين ، وتماثيل لعبريين أو مسيحيين — تريتونات (آلهة البحر) وقنطروسات ونيريدات (حوريات البحر) ، وسيرانات وموزيات والفاونات وهرقل وتيزيوس وشمشون والأنبياء وعيسى والرسل وملائكة يعزفون ألحاناً أو يلهون مع أسود أو كلاب ، وبعض هـــذه التماثيل لا يزال فى صورة بدائية ، وكثير منها تم نحته بدقة دوناتيلو أو غيبرتى ، وهى كلها تسهم بوضوح فى إدراك متنوع للحياة . وتضارع

تماثيل بطرس وبولس ومتى ويوحنا لوحة (الرسل الأربعة) التى صورها ديرر بعد سبع سنوات فى نورمبرج نفسها .

ويقال إنه لم يأت إلى نورمبرج فى هذه العقود الأولى من القرن السادس عشر أمير أو حاكم إلا وزار مسبك بيتر فيشر . وقد ألح الكثيرون فى طلب أعماله الفنية . وعرض عدد كبير من الكنائس أعماله من الشمعدان النحاسى الكبير فى كنيسة لونز وقبر ماكسمليان الأول فى أنزبروك . وحذا أولاده الخمسة حذوه فى النحت وإن كان اثنان منهم قد وافتهما المنية قبله . ومعروف أن هرمان فيشر الأصغر الذى مات فى الحادية والثلاثين من عمره (١٥١٧) قد سبك زخرفاً بارزاً جميلا من البرونز لمقبرة الكردينال كازيمير فى كاتدرائية كراكاو .

وكما تفوق آل فيشر فى أشغال البرونز وفيت ستوس فى أعمال الخشب فإن آدم كرافت بز كل معاصريه فى النحت على الحجر . وقد صوره المؤرخون الألمان هو وبيتر فيشر الأكبر وسباستيان ليندينا ست (الذى صمم تماثيل الأمراء المتملقين على ساعة كنيسة العذراء) فى صورة فنانين وأصدقاء أوفياء ، « كانوا مثل الإخوة . كانوا يلتقون كل يوم جمعة ، حتى عندما بلغوا من الكبر عتياً ، ويدرسون معاً كأنهم صبية يتمرنون حسبما تدل عليه التصميمات التى نفذوها فى اجتماعاتهم . ثم كانوا يفترقون وقد ألهاهم العمل عن تناول الطعام أو الشراب » . ولعل آدم ولد فى نفس العام الذى ولد فيه بيتر (١٤٦٠ ؟) وكان مثله فى البساطة والأمانة والورع والشغف برسم صورته الشخصية . ونحت عام ١٤٩٢ لكنيسة زيبالدوس مقبرة لزيبالدوس شريبار عليها نقوش بارزة تمثل آلام المسيح عند الصلب والبعث وأعجب هانز رامهوف ، وهو تاجر ثرى بهذه البراعة فعهد إلى كرافت أن يصمم كأساً يحمل خبز ونبيذ القربان المقدس فى كنيسة لورنتس

وقام آدم بصنع بيت القربان المقدس على هيئة هيكل رشيق عال من الطراز القوطى الأخير ويعد معجزة فى الصياغة الدقيقة للحجر يرتفع طبقة بعد طبقة حتى يبلغ ارتفاعه أربعة وستين قدماً ، ويستدق ليصبح قوساً يشبه رأس صولجان الأسقف ، وتنبض الأعمدة بالحياة إذ تزخر برسوم القديسين ، أما أبواب « البيت » فتحرسها الملائكة ، وأما الأوجه المربعة فقد نقش عليها رسوم بارزة تمثل مناظر من حياة المسيح ، ويرتكز البناء الطلق الهواء كله بطريقة غريبة على ثلاثة تماثيل جاثية — آدم كرافت واثنان من مساعديه . وليس فى الصورة الشخصية أى أثر للتملق ، فالملابس بالية ومهلهلة من أثر الكد والنصب ، والأيدى خشنة واللحية كثة والوجه العريض المرفوع إلى أعلا منكب على تصور العمل وتنفيذه . وعندما انتهت هذه الرائعة التى تأخذ بالألباب عاد كرافت إلى موضوع الأثير فنحت سبع أعمدة من الحجر الرملى عليها مناظر تمثل آلام المسيح عند الصلب منها ستة موجودة الآن بالمتحف الألمانى وأحدها واسمها « الدفن » تمثل الفن التيوتونى الأنموذجى وتمتاز بواقعية جريئة لاتحتاج إلى استكمال وتنطوى على الورع والإيمان .

واستمرت الفنون الصغرى فى انتهاج نفس الصنع وطرق نفس الموضوعات وكان رسامو المنمنمات لا يزالون تنهال عليهم الطلبات للحفاظ على الطوائف الحرفية الناجحة . ورسم كبار الفنانين أمثال ديرر وهولبين تصميمات للزجاج الملون وليس من شك فى أن هذا الفن الذى تدهور فى فرنسا وانجلترا وصل آنذاك إلى ذروة الإتقان فى ألمانيا . وفى هذه الفترة حصلت كنيسة لونز وكاتدرائيات أولم وكولونيا على نوافذ لها شهرة عالمية ، ولم تكن هذه النوافذ مقصورة على الكنائس ، فقد كان فى دور النقابات الحرفية والقلاع بل وفى البيوت الخاصة بعض نوافذ من الزجاج الملون . وكانت المدن من أمثال نورمبرج وأوجسبورج وريجينزبورج وكولونيا ومايز تفخر بصنـــاعها المهرة الفنانين : وهم صانعو الأدوات المعدنية الذين

رفعوا من شأن المشاعل والثريات والصحاف والجرار والأقفال والصوانى والصاغة الذين لقيت منتجاتهم ، من الملاعق إلى الهياكل ، تقديراً عظيماً فى أرجاء أوربا ، وعمال النسيج الذين نسجوا الطنافس والسجاجيد والثياب الكهنوتية والرداء المنمق لطبقة الأشراف ، والنساء المتعبدات ، وكن يبلين أناملهن ويرهقن عيونهن لكسوة الهياكل والقسس بالمطرزات والحرير . ولم يكن الحفارون قط فى أى عهد مضى أحسن حالا منهم فى هذا العهد ، فإن ميكائيل فولجيموت قد حفر من الخشب اثنى عشر محراباً من أروع الأعمال ، إلى جانب الرسم على نافذتين بديعتين لكنيسة لورنتس ، ثم عام ديرر كيف يفوقه فى هذا الفن .

وتطور فن الحفر بنقش رسم على الخشب أو النحاس فى القرن الخامس عشر حتى أصبح فناً ناضجاً يجله الناس تماماً كالتصوير . وهذبه كبار المصورين ووصل به مارتن شونجاور إلى درجة الكمال . وبعض أعماله فى الحفر — تعذيب المسيح وعمل الصليب والقـــديس جون فى ياتموس واغواء القديس أنتونى ، تعد من أعظم الأعمال الفنية فى كافة العهود .

وأصبح الفن الإيضاحى فى الكتب بوساطة النقوش مناسبا وشائعه وسرعان ما حل محل الزخرف وتضاعف عدد أشهر اللوحات فى هذا العهد بأعمال الحفر التى كانت تباع فى أكشاك فى المكتبات والأسواق والمهرجانات ، وأظهر لوكاس فان ليدن نبوغا مبكرا مذهلا فى هذا المجال . فقد حفر لوحته « محمد » وهو فى الرابعة عشرة من عمره ولوحته « المسيح وعلى رأسه إكليل الشوك » وهو فى السادسة عشرة من عمره (١٥١٠) وقارب الكمال فى صورة ماكسمليان التى نقشها على النحاس واستخدم الحفر الإبرى وذلك بآلة مدببة تقذف شظية أو حافة من المعدن المقتطع بطول خطوط الرسم ، فى صورة « سيد كتاب البيت » التى نقشها فنان مجهول حوالى عام

١٤٨٠ . أما الحفر بتغطية سطح معدنى بالشمع ونقش رسم بالحفر فى الشمع وصب حامض لينخر فى الخطوط البارزة فإنه تطور من النقش على السلاح إلى الحفر على ألواح معدنية يمكن أن تطبع بها النقوش ، ويبدو أن دانييل هوبفر وهو صانع سلاح قام بصنع أول « كايشيه » سجله التاريخ عام ١٥٠٤ ومارس بورجكماير وديرر الفن الجديد فى غير إتقان . ولعل لوكاس فان ليدن قد تعلم هذا الفن من ديرر غير أنه سرعان ما فاقه وملك ناصيته .

وكان هذا العصر أعظم عصور ألمانيا فى التصوير . وقد تأثر المصورون الألمان فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر بالمدرستين الهولندية والإيطالية كما تأثروا بمصورهم مملنج المبعد عن وطنه فتدرجوا من صرامة الفن القوطى وفظاظته إلى خط يتسم بمزيد من الرشاقة ، ورسم صور تتحرك فى يسر فى مناظر طبيعية تعكس الحياة المنزلية للبورجوازية الظافرة ؛ وظلت الموضوعات الدينية هى الغالبة ، وإن كانت الموضوعات الدنيوية قد أخذت تزحف قدما وأخذت النقوش الهيكلية الطريق للصور المرسومة على الخشب ولم يعد المحسنون الأثرياء يقنعون بالسير فى ركاب جماعة دينية ، فطلبوا أن ترسم لهم صور شخصية هم فيها كل شىء . وبرز المصورون أنفسهم من حالة إغفال الأسماء فى العصور الوسطى إلى الفرديات المتميزة ، وأخذوا يوقعون بإمضاءاتهم على أعمالهم تشبثا بالخلود .

ومع ذلك فإن صاحب لوحة « حياة العذراء » التى رسمت فى كولونيا حوالى عام ١٤٧٠ لايزال مجهولا ، وقد ترك هذا الفنان لوحة « العذراء والقديس برنار » ورسم فيها عذراء ألمانية حقيقية تحتضر من ثديها اللبن الطفل ، أمام راهب ورع لايكاد يومئ إلى كلب السماء الذى طارد ابيلارد .

ويعد ميكائيل باشير واحدا من أوائل الفنانين الذين نقلوا أسماءهم كما نقلوا أعمالهم . ولا تزال كنيسة سانت ولفجانج الأبرشية فى سالتسكا مرجوت

تعرض النقش الهيكلى الضخم الذى يبلغ طوله ستة وثلاثين قدما والذى حفره وصوره لها فى السنوات من ١٤٧٩ إلى ١٤٨١ وقد أسهمت دراسة المنظور فى هذه الصور المرسومة على الخشب وفى تعليم الفن الألمانى .

وأظهر مارتن شونجاور فى تصويره حذق حفار مثقف وحس روجير فان دير فيدن المرهف . وقد ولد شونجاور عام ١٤٤٥ فى أوجسبورج واستقر فى كولمار وطور هناك مدرسة للحفر والتصوير لعبت دوراً عظيما فى بلوغ الفنون إلى الأوج فى عهد ديرر وهولبين .

وفى كل عام كانت المدن النامية فى الجنوب تسلب زعامة الفن الألمانى من كولونيا والشمال . وفى أوجسبورج ، مركز التجارة مع إيطاليا ، أدخل هانز بورجكماير فى لوحاته لمسات زخرفية إيطالية ومزج هانز هولبين الأكبر الزخرف الإيطالى برصانة الطراز القوطى . وخلف هانز فنه لولديه أمبروز وهانز اللذين صورهما باعتزاز فى لوحاته . ولم يلمع اسم امبروز فى التاريخ ولكن هانز الصغير أصبح أحد أمجاد ألمانيا وسويسرة وإنجلترا ، وكان أعظم سلف لديرر هو ماتياس جوتهارت نايهارت الذى أصبح معروفا للخلف باسم ماتياس جرونيفالد بسبب خطأ ارتكبه أحد الباحثين . وقد تعلم سحر المصور من شونجاور فى كولمار وذلك فى مجال الوراثة الاجتماعية القديمة جدا للفن . ثم أضاف إليها تعطشه للشهرة والوصول إلى الكمال وتدرب فى أناة فى غنت وشبييار وفرانكفورت واختار ستراسبورج موطنا له (١٤٧٩) . ولعله رسم هناك أول رائعة له وهى صورة شخصية ثنائية لفيليب الثانى صاحب هانو — ايختنبرج وزوجته . والحق أن ديرر نفسه لايستطيع أن يبزها لما يتجلى فى هذه اللوحة من إدراك عميق وجمال فى التنفيذ . وعاد جرونيفالد للتجوال من جديد وعمل بعض الوقت مع ديرر فى بازل حيث رسم « صورة رجل » المعروضة الآن فى نيويورك ثم قام

مرة أخرى بأعمال حفر فى الخشب مع ديرر فى نورمبرج . واستقر عام ١٥٠٣ فى زليجنشتادت وهناك طور فى نهاية الأمر أسلوبه المتميز الناضج — رسم مناظر من الإنجيل بإحساس مرهف ومقدرة هائلة . وعينه كبير الأساقفة ألبرخت مصورا للبلاط فى ماينز (١٥٠٩) ولكنه عزل جرونيفالد عندما أصر على الثناء على لوثر (١٥٢٦) . وتزوج وصادفه سوء الطالع ثم انسحب وعاش فى عزلة تقبض الصدر لعلها ألقت بعض الظلال السوداء على التظليل فى فنه .

ومن أروع أعماله — وربما كان أعظم أعمال التصوير الألمانى — الهيكل المتعدد الثنيات الذى أعده لدير فى ايزن عام ١٥١٣ ويعرض اللوح الأوسط العذراء وابنها بلون ذهبى يشع بالضـــياء على طريقة الفنان تورنر ، على مهاد من البحار النائية ، ولكن اللوح البارز الذى لا ينسى رسمت عليـــه صورة بشعة لصلب المسيح : تمثله وهو فى النزع الأخير وقد غطت جسده الجروح والعرق الممتزج بالدم ، وأطرافه تتلوى من الألم ، ومريم مغشى عليها بين ذراعى القديس يوحنا ، وماجدالين تتميز غضباً ويرتسم على أساريرها حزن مريب ، ولا تزال هناك ألواح أخرى يمكن أن تكون فى ذاتها لوحات عظيمة : جوقة من الملائكة بأسلوب قوطى فى البناء المعمارى تتداخل فيه الألوان الحمراء والبنية الزاهية ، ولوحة مرعبة اسمها « إغواء القديس أنتونى » وصورة للقديس نفسه ، وناسك فى غابة تزخر بالأرواح الشريرة والأشجار التالفة ، وكابوس بوشى يبدو أنه يرمز إلى أحلام أنتونى . وفى غلبة اللون والضوء والإحساس بالخط والشكل والتصور فإن هذه السورة المسرحية فى المقدرة التصويرية هى ذروة التصوير الألمانى القوطى قبيل انتصار الخط والمنطق فى فن ديرر الذى مد يديه فى اشتياق إلى إنسانية وفن عصر النهضة الإيطالى على الرغم من تشبثه بصوفية ألمانيا فى العصور الوسطى .

٥ ـ ألبرخت ديرر (١٤٧١ ـ ١٥١٧)

لم يسبق لأمة أخرى غير ألمانيا أن اختارت بالإجماع أحد أبنائها ليكون ممثلا لها فى الفن ـ فقد وقع اختيار البروتستانت والكاثوليك وأهل الشمال وأهل الجنوب على الفنان ديرر . وفى اليوم السادس من أبريل عام ١٩٢٨ ، وبمناسبة الذكرى السنوية الأربعمائة لوفاته طرح الريخستاج فى برلين ومجلس المدينة فى نورمبرج الأمور السياسية والمذهبية جانباً ، وذلك لتكريم فنان تحبه ألمانيا أكثر من أى فنان آخر . وفى غضون ذلك عرض خبراء الفنون دون طائل مبلغ ١ر٠٠٠ر٠٠٠ دولار لشراء لوحة ـ اسمها « عيد أكاليل الورد » ، وهى لوحة تقاضى عنها ديرر مبلغ ١١٠ جيلدر (٢ر٧٥٠ دولار ؟) .

وكان والده الهنغارى صائغا استقر به المقام فى نورمبرج : وكان ألبرخت الابن الثالث من ثمانية عشر ولدا مات معظمهم فى سن الطفولة وتعلم الولد فى مرسم أبيه كيف يرسم بالقلم الرصاص والفحم والريشة وكيف يحفر بالنقاش ، ودرب نفسه على قوة الملاحظة وتمثيل الأشياء والموضوعات بتفصيل لا يعرف الكلل ، حتى إن كل شعرة تقريباً فى بعض لوحاته تبدو وكأنها تلقت ضربة خاصة بها وحدها من الفرشاة . وكان الوالد يأمل أن يخلفه ابنه فى حرفته كصائغ إلا أنه أذعن لرغبة الشاب فى أن يتوسع فى نطاق فنه . فأرسله إلى فولجيموت ليتمرن هناك (١٤٨٦) وتدرج ألبرخت فى عمله ببطء ومكنت له عبقريته فى الطموح والمثابرة والصبر . وقال : « لقد حبانى الله بفضيلة الجد فحسن تعليمى ولكنى اضطررت أن أتجاوز عن قدر كبير من الإزعاج الذى سببه لى أعوانه » ونظراً لأنه لم تسنح له فرصة كبيرة لدراسة الجسم العارى فإنه تردد على الحمامات العامة ورسم أجساماً فى جمال أبولو وذلك بقدر ما سمحت له الظروف هناك . وكان هو نفسه يحاكى

أبولو بعض الشيء فى تلك السنوات . وقد وصفه احد أصدقائه فى اعتزا بقوله : له جسم رائع متين البناء معتدل القوام جدير بما يحمله من عقل نبيل . . . وجه ذكى الملامح وعينان تلمعان وجيد طويل وصدر عريض وخصر نحيل ومنكبان قويان وساقان ثابتتان ، أما يداه فنى وسعك أن تقول إنك لم تر قط يدين تبزهما فى الرشاقة . أما حديثه فعذب شائق حتى ليتمنى المرء ألا ينتهى أبدا .

واجتذبته أعمال الحفر التى قام بها شونجاور فاتخذ طريقه إلى كولمار (١٤٩٢) وإذا به يجد الأستاذ قد مات فتعلم قدر المستطاع من إخوة شونجاور ثم رحل إلى بازل حيث تعلم من جرونيفالد أسرار الفن الدينى الخالص وكان قد أصبح رساماً بارعاً . وتحمل طبعة من رسائل سان جيروم نشرت فى بازل عام ١٤٩٢ على صفحتها الأولى صورة شخصية للقديس رسمها ديرر ، ونالت هذه الصورة استحسان النقاد حتى تنافس ناشرون عديدون للحصول على أعماله المستقبلة . ومهما يكن من أمر فإن أباه حثه على العودة للوطن ليتزوج من الفتاة التى اختارها له إبان غيابه . وعاد إلى نورمبرج واستقر هناك وعاش مع زوجته أجنس فراى (١٤٩٤) .

وقد رسم نفسه قبل ذلك بعام فى صورة شاب يرتدى زياً يكاد يكون زى امرأة ويصفف شعره مثلها تقريبا ، معتزا بنفسه وخجولا فى الوقت ذاته يرتاب فى العالم ويتحداه ، وفى عام ١٤٩٨ وكان لا يزال معجباً بوسامته ولحيته أيضاً رسم لنفسه صورة شخصية فى زى نبيل شاب يرتدى ملابس فاخرة وعلى رأسه قلنسوة لها شرابة تبرز منها خصل طويلة من الشعر البنى ، وتعد هذه اللوحة من أعظم الصور الشخصية التى رسمها فنان لنفسه فى جميع العصور . ورسم نفسه مرة أخرى عام ١٥٠٠ فى ملابس أكثر بساطة والوجه مستطيل بين خصل غزيرة من الشعر تتهدل فوق الكتفين ، وفى العينين النافذتين بريق غامض ويبدو أن ديرر رسم نفسه هنا فى صورة خيالية تشبه صورة

المسيح لا عن زهو يتسم بالزندقة ولكن لأن له رأياً يردده كثيراً كأمر مسلم به وهو أن أى فنان عظيم هو الناطق بلسان الله ويوحى منه تعالى . وكان الغرور هو الدعامة التى يستند إليها فى عمله ، إذ أنه لم يضاعف من عدد صوره الشخصية فحسب ، ولكنه أفسح لنفسه أيضاً مكاناً فى كثير من نوحاته . وكان فى بعض الأوقات يتمسك بأهداب التواضع ويدرك فى أسى أن قدراته محدودة ، وقال لبيركهايمر « عندما يثنى علينا فإننا نشمخ بأنوفنا ونصدق كل ما قيل عنا ولكن من يدرى ؟ لعل أستاذا ساخرا يضحك علينا من وراء ظهورنا » . أما بالنسبة لغير هذا فقد كان سليم الطوية ورعاً مخلصاً كريماً سعيدا بقدر ما تسمح الظروف .

ولم يستطع أن يعيش مسلوب اللب مع زوجته : فقد انطلق إلى إيطاليا بعد زواجه بوقت قصير وخلفها وراءه . وكان قد سمع عما يطلق عليه « النمو الجديد » للفنون فى إيطاليا بعد أن ظلت دفينة ألف عام . وعلى الرغم من أنه لم يسهم مطلقاً فى هذا البعث للأدب الكلاسى والفلسفة والفن التى واكبت عصر النهضة فإنه كان تواقاً لأن يرى من المصدر الأصلى مباشرة ما الذى حبا الإيطاليين بهذا التفوق فى الرسم والنحت والنثر والشعر . وأقام بصفة أساسية فى البندقية ولم تكن النهضة قد بلغت فيها أوج الازدهار ولكنه عند ما عاد إلى نورمبرج (١٤٩٥) كان قد تلقى بوسيلة ما الحافز الذى أطلق شرارة طاقة الإنتاج السريعة فى خلال السنوات العشر التالية . وفى عام ١٥٠٧ ذهب إلى إيطاليا مرة أخرى بعد أن اقترض مبلغ مائة فلورين (٢٥٠٠ دولار ؟) من بيركهايمر وأقام فيها هذه المرة عاماً ونصف عام .

ودرس أعمال ماتنيا وسكوارسيونى فى بادو ونسخ فى تواضع بعض الرسوم وسرعان ما اعترف به بلينى وفنانون آخرون من البندقية رساما بارعا ونالت لوحة « عين أكاليل الورد » ، التى رسمها لكنيسة ألمانية ، الاستحسان حتى من الإيطاليين ؛ وكانوا لا يزالون يعدون معظم الألمان

برابرة . وعرض عليه سيد البندقية منصبا دائماً إذا أقام هناك ولكن زوجته وأصدقاءه ألحوا عليه فى العودة إلى نورمبرج . ولاحظ أن الفنانين فى إيطاليا أحرزوا مكانة اجتماعية رفيعة تفوق مكانة زملائهم فى ألمانيا وقرر أن يطالب بمنزلة اجتماعية مماثلة عند عودته وكتب يقول : « إنى هنا سيد مهذب أما فى الوطن فأنا طفيلى » أى غير منتج لسلع مادية . وأبهجه الاهتمام بالفن فى إيطاليا وكثرة الفنانين وما يدور بينهم من صراع والمناقشات الذكية والحادة التى تدور حول نظريات الفن . وعندما شرح له جاكوبو دى باربارى مبادئ بييرو ديلا فرانشسكا وغيره من الإيطاليين عن النسب الرياضية للجسد البشرى الكامل قال ديرر إنه « يؤثر أن يشرح له هذا فهو خير عنده من أن يتلقى مملكة جديدة » . واعتاد فى إيطاليا رسم « الجسم العارى » فنيا ، وقد ثقف ذلك بدراسة التماثيل القديمة وفى الوقت الذى حافظ فى أعماله على الطابع التيوتونى والمسيحى فإنه شغف بالفن الوثنى الذى يعجب به الإيطاليون وسعى فى سلسلة طويلة من المقالات أن يعلم مواطنيه من الفلاحين أسرار المنظور والنسب والتلوين . وانتهى الأسلوب القوطى فى الرسم الألمانى بهاتين الرحلتين اللتين قام بهما ديرر إلى إيطاليا ، وهكذا قبل الجيل الألمانى ، الذى رفض أن يتبع روما فى الدين ، أن يسير على نهج إيطاليا فى الرسم .

وظل ديرر نفسه فى حالة توتر خلاق ، وإن اتسم بالتردد بين العصور الوسطى وعصر النهضة ، وبين الاتجاه الصوفى الألمانى والإقبال الإيطالى على الدنيا ولم تتغلب فى روحه قط بهجة الحياة التى رآها فى إيطاليا على التأمل فى الموت . وإذا استثنينا صوره الشخصية فإن موضوعاته ظلت برمتها تقريبا دينية . وكان كثير منها صوفيا . ومع ذلك كان الفن دينه الحقيقى . كان يعبد الخط الكامل ويؤثره بالعبادة على محاكاة المسيح . وقد أظهر حتى فى أعماله الدينية اهتمام الفنان الشديد بكل الأشياء التى تعرض له حتى فى

الحياة اليومية العادية ورسم مثل ليوناردو كل شيء تقريبا . . صخورا وجداول ماء وأشجارا وجيادا وكلابا وخنازير ، وجوها قبيحة وأشكالا قميئة وكائنات خيالية لها شكل عجيب أو مروع . ورسم ساقه اليسرى كما ترى فى أوضاع مختلفة وبعج وسادة لتتخذ سبع أشكال مختلفة لدراستها بريشته التى لا تعرف الكلل . وحشد فى عمله معرضا حقيقيا للحيوان ورسم أحيانا مدينة كاملة لتكون مهادا لإحدى لوحاته . وصور حياة الناس وأعمالهم فى الريف بنشوة وفكاهة . وكان يحب الألمان فرسم رءوسهم الضخمة وسمات وجوههم التى تنزع إلى الحمرة دون احتجاج وعرضهم فى البيئات غير المتوقعة حتى فى روما أو فلسطين وهم يرتدون دائما ملابس فاخرة مثل أبناء الطبقة الرسطى من السراة ويتدثرون ويتلفعون وكأنهم يتقون برد ألمانيا . ورسمه وصف اثنوجرافى لأجيال نورمبرج ، وكان هم عملائه الأثرياء من التجار الذين خلد ذكرهم فى لوحاته — ومع ذلك فقد تلقى مكافآت من الدوقات والأمراء المختارين فى الإمبراطورية ، وأخيرا من ماكسمليان نفسه ، وكما كان تيسيان يحب أن يصور طبقة الأشراف والملوك ، فإن ديرر كان يألف تصوير أبناء الطبقة الوسطى ، ولقد جعلت هذه لصورة ، التى حفرها على الخشب ، الإمبراطور يبدو كما وصفه لويس الثانى عشر « عمدة أوجسبورج » . ورسم ديرر مرة واحدة فى حياته النبالة فى صورة — وهى صورة خيالية لشارلمان .

وله ست وثلاثون صورة شخصية تعد من أحسن أعماله التى تقربها العين ويسر بها الفؤاد ، لأنها بسيطة وحسية دنيوية زاخرة بما يميزها من شخصيات . انظر إلى صورة هيرونيموس هولتسشوهر عضو مجلس الشيوخ فى نورمبرج ، رأس ينم على القوة ووجه صارم الملامح وشعر ناحل على جبهة عريضة ولحية مهذبة فى تناسق تام وعينان حادتان كأنه يرقب بهما السياسيين ، ومع ذلك فإن فيهما شروع فى بريق . نحن أمام رجل طيب القلب

مرح حسن الشهية . أو تأمل صورة ويليبالد بيركهايمر ، وهو أعز أصدقاء ديرر ، رأس ثور يخفى عقل علامة ويشير إلى شهوات معدة جاربجانتوا . ومن كان يتوقع أن وجه فردريك الحكيم الضخم ، حكيم ساكسونيا ، بتقاطيعه المتغضنة المهدلة ، يخفى وراءه الأمير المنتخب الذى تحدى البابا ليحمى لوثر ؟ إن كل صور الأشخاص تقريباً تخلب اللب . صورة أوزفولت كريل الذى يبدو تركيزه الحاد حتى فى عروق يديه أو صورة برناردفون رستن بالصدار الأزرق الرقيق والقبعة العريضة الفخمة والعينين المتأملتين لفنان مستغرق أو صورة جاكوب موفيل عمدة نورمبرج . وهى استغراق فى الفكر للتعبد الجاد ، وهى تلقى بعض الضوء على عظمة المدنية وثرائها ، أو صورتا والد ديرر وهو يبدو فى إحداهما منهوك القوى من النصب عام ١٤٩٠ ، وفى الثانية خائر القوى إلى أقصى حد عام ١٤٩٧ ، أو صورة سيد مهذب فى البرادو — رجولة مجسمة تدنسها القسوة والجشع ، أو صورة الزابث توخر وهى تحمل خاتم زواجها متطلعة إلى إتمام الزواج فى خفر ، أو صورة سيدة من البندقية التى اضطر ديرر من أجلها أن يسافر إلى إيطاليا ليجد الجمال والقوة . وقلما تجد فى صور من رسمهم من الذكور رقة ، وهى تخلو من الرشاقة ، وإن بدت فيها دائماً قوة الشخصية . قال : « إن ما لا يفيد فى الرجل ليس جميلا » ،وكان يهتم بالواقع وحكايته بأمانة أكثر من اهتمامه بجمال القسمات أو الشكل ، وقد أشار إلى أن الفنان يستطيع أن يرسم بالرصاص أو يصور بالزيت صورة جميلة لشىء قبيح أو لموضوع كريه . كان تيوتونيا فطر على الجد وتقديس الواجب والإخلاص ، وقد ترك الجمال والرشاقة للسيدات وركز على القوة فى الرجال .

ولم يكن مبرزاً فى التصوير ، ولم يكن الرسم ينسجم مع ذوقه ، ولكن زيارته لإيطاليا أثارت فيه الرغبة فى أن ينشد اللون والخط معاً . وصور هيكلا متعدد الثنيات عرف فيما بعد باسم مذبح درسدن ، وذلك لفردريك صاحب ساكسونيا

والكنيسة الملحقة بقصره فى فيتنبرج . وهنا نجد أن الأساليب الإيطالية فى النسبة والمنظور قد شكلت إطار الأجسام بأسلوب ألمانى بحت : سيدة ألمانية تمثل العذراء ، وأستاذ يمثل القديس أنتونى ، وشماس معمدانى ألمانى يمثل القديس سباستيان ، والنتيجة صورة فذة . وأبدع منها الصـــور والنقوش الهيكلية لباومجارتنر فى ميونخ : صورة رائعة للقديس يوسف والعذراء مريم فوق مهاد معمارى من الأطلال الرومانية . ولكن صدر الصورة قد شوهته أقزام سخيفة ؛ أما صورة عبادة المجوس فى الأوفيزى فهى انتصار للون يتمثل فى رداء العذراء الأزرق والثياب الفخمة التى يرتديها الملوك الشرقيون ؛ ولوحة المسيح بين الأطباء تبين عيسى الوسيم ، له خصلات شعر فتاة ، ويحيط به ثقات نحارير من ذوى اللحى والوجوه المتغضنة — أحدهم يشبه صورة هزلية كله أنف وأسنان . وصورة عيد أكاليل الورد تضارع أروع الصور الإيطالية فى هذا العهد ، بتكوينها البارع وجمال الأم والطفل معا وروعة اللون بصفة عامة ، وتعد أعظم لوحة الدير ، ولكن على المرء أن يجازف بقطع كل الطرق إلى براغ ليشاهدها . وفى فينا وبرلين لوحات جذابة من عمل دير لمريم العذراء ؛ وفى نيويورك لوحة للعذراء والطفل مع القديسة آن ، وهى تقدم لنا فتاة ألمانية رقيقة ، تمثل العذراء ، وسيدة سامية سمراء تمثل أمها ، وما أروع اللوحات فى البرادو التى تصور آدم وحواء ، فهنا نتوقف لحظة لنجد فناناً ألمانيا يظهر لنا جمال أنثى صحيحة البدن وهى عارية . ولقد ثبط من همة دبرر المكافأة القاصرة التى حصل عليها من التصوير ، وربما أوهن من عزيمته اضطراره إلى تكرار الموضوعات الدينية القديمة ، فتحول بصورة متزايدة إلى عمل يدر عليه ربحاً أكثر . ويتسم بمزيد من الأصالة ، وهو نحت الخشب والحفر ، لأن لوحا واحداً فى هذه الحالة يكفى لصنع ألف نسخة يمكن نقلها بسهولة إلى كل سوق فى أوروبا . ويمكن أن تزود ألف مجلد مطبوع بالرسم نفسه .

كانت براعة ديرر تتجلى فى رسم الخط وكان الرسم مملكته التى لا يبزه فيها رجل من الأحياء وقتذاك ، بل إنه فى هذا المجال أذهل برقته المتناهية الإيطاليين المزهوين بأنفسهم . ولقد شبهه ارازموس كرسام بأستاذ قديم بارع فى الخط فقال : إن أبيلز كان يستعين باللون . . . أما ديرر فما الذى لا يستطيع أن يعبر عنه بلون واحد ؟ . . . والنسب والإيقاعات المنسجمة ؟ كلا إنه يرسم ما لا يمكن تصويره — النار وأشعة الضوء والرعد . . والبرق . . وكل الأحاسيس والانفعالات فى رقة ، وعقل الإنسان بأسره وهو يعكس نفسه بسلوك الجسد ، بل إنه يكاد يرسم الصوت نفسه ، وهو يضع هذه الأشياء أمام الأعين بأصلح الخطوط خطوط ، سوداء ، ومع ذلك فإنك لو نشرت عليها ألواناً لأضررت بالعمل الفنى . ثم أليس عجيباً أن يحقق فنه دون أن يتوسل باللون ما حققه أبيلز متوسلا بها ؟

ورد ديرر على هذا الإطراء بحفر صورة شخصية لارازموس (١٥٢٦) ولم يجلس من أجلها ارازموس أمامه ولكنه رسمها عن صورة من عمل ماسيس ، وهى إن كانت لا تضارع هذه الصورة الشخصية ، ودون الصورة التى رسمها هولبين ؛ فإنها من روائع الرسم مع هذا كله ، وذلك للبراعة فى تصوير ثنيات العباءة وظلالها وتجاعيد الوجه واليدين والأوراق المطوية للكتاب المفتوح .

وقد خلف لنا ديرر أكثر من ألف صورة معظمها يعد معجزات من التصميم الواقعى أو المعبر عن الورع أو الخيالى الخارق ، وبعضها صور هزلية صريحة ، وإحداها تصور السن والحكمة فى دقة متناهية ، ومن آن لآخر يكون الموضوع من ذلك النوع الذى لا ينبض بالحياة ، كما فى لوحة الطاحونة ، أو مجرد خضرة خالصة مثل لوحة « المرج » ، أو حيواناً مثل صورة رأس فيل البحر . وتحتشد عادة النباتات والوحوش حول أشخاص أحياء ، كما فى اللوحة المركبة « السيدة العذراء مع حشد من الحيوانات » ، أما الموضوعات الدينية فهى أقل أعماله نجاحاً ، ومع ذلك فإننا يجب أن نستثنى وتقدر اللوحة الرائعة المسماة

« يدا رسول يصلى » . وأخيراً فثمة دراسات رائعة فى الأساطير القديمة مثل لوحة أبولو وصورة أورفيوس .

وقد حول ديرر نحو ٢٥٠ من رسوماته إلى أعمال من الخشب المحفور المنحوت ومائة إلى حفر ، وهاتان المجموعتان تمثلان أروع جانب يستحق التقدير من تراثه . ولقد حفر بنفسه التصميمات حتى مدار القرن ، ثم عهد فيما بعد بحفر الخشب إلى آخرين . وما كان ، بغير هذا التعاون ، ليستطيع أن يصور مثل هذا القطاع الواسع من الحياة . وقد بدأ بتصوير رسوم لكتب مثل الفارس « فون تورن » و « الطيش » لسباستيان برانت ، ورسم بعد عشرين عاماً صوراً هامشية لكتاب الصلوات الخاص بماكسمليان . وجرب ريشته فى رسم الجسم العارى ، ونجح نجاحاً عظيماً فى لوحة «حمام الرجال» ولم يبلغ الشأو نفسه فى صورة «حمام النساء» ، وقد أفاد فى كليهما كدافع ثورى للفن الألمانى الذى كان قد أعرض عن رسم الجسم العارى باعتباره عملا فاضحاً أو تبديداً للأوهام . واشتهرت أعمال الحفر فى الخشب ، التى صورت حياة العذراء وآلام المسيح عند الصلب ، فقد غدا فى وسع النساء المتعبدات وقتذاك أن يتأملن ، وهن يصطلين بجوار مدافئهن ، صورة مطبوعة تبين خطبة يوسف ومريم ، وكان الألمان العمليون يسرهم أن يجدوا فى صورة إقامة العائلة المقدسة فى مصر كل التفاصيل المريحة للألفة والجد اللذين عرف بهما الشعب التيوتونى — مريم تحيك الثياب ، ويوسف يعمل وهو جالس على دكته ، وأطفال عليهم مسحة ملائكية يحضرون الحطب دون أن يطلب أحد ذلك منهم . وثمة سبع وثلاثون صورة من أعمال حفر الخشب الصغير — « آلام المسيح الصغرى » — وإحدى عشرة صورة أكبر — « آلام المسيح الكبرى » — عرضت قصة تعذيب المسيح ووفاته فى آلاف البيوت ، ونبه شوق الرأى العام لترجمة لوثر للعهد الجديد . وثمة سلسلة أخرى من الصور زينت سفر الرؤيا وبعضها حفر على الخشب مثل « الفرسان الأربعة فى سفر الرؤيا » والقديس مايكل يقاتل التنين وكانت من النضارة والوضوح

بحيث ظل الذهن الألمانى قرونا طويلة يفكر فى سفر الرؤيا كما عبر عنها ديرر برسومه .

وتجاوز مرحلة حفر الخشب إلى فن يحتاج إلى مزيد من الجهد هو فن النقش ، وحاول بين الفينة والفينة النقش بالحفر الإبرى ، كما فى الصورة المظللة « العائلة المقدسة » وكان عادة يعمل بإزميل . و « سقوط الإنسان » نقش على النحاس فى أشكال تليق باليونان وفى نسبة وتناسق جديرين بالإيطاليين مع ما عهد فى ديرر من إسراف فى رسم الحيوان والنبات ، حيث نجد أن لكل وحدة تقريباً دلالة رمزية بالنسبة له وبخياله . وبرزت إناث عاريات فى روعة لم يسبق لها مثيل فى الفن الألمانى من المعدن ، وذلك فى صورة « وحش البحر » و « الصراع بين الفضيلة واللذة » ، بخلفية من المناظر الخلوية رسمت ببراعة .

أما الستة عشرة صورة من الحفر والتى تكون « آلام المسيح منقوشة » فإنها أقل تأثيراً من صورة « تعذيب المسيح » المحفورة على الخشب ، ولكن صورة القديس ايوستاس فهى مجموعة من الرسوم الحية : خمس كلاب وجواد وغابة ، وحشد من الطيور وسلسلة من القلاع فوق تل ، وغزال يحمل صليباً بين قرنيه ، ويتوسل إلى الصياد أن يعفيه من القتل ويغريه بأن يصبح قديساً .

وبلغ ديرر فى عامى ١٥١٣ و ١٥١٤ الذروة كرسام فى ثلاث رائعات من الحفر ، فالفارس والموت والشيطان نسخة قوية من موضوع كئيب من القرون الوسطى . . فارس صارم الملامح مسربل بالدروع والسلاح ، يمتطى صهوة جواد فيروكشى ، تكتنفه صورة قبيحة للموت والشيطان ، ومع ذلك فإنه يتقدم إلى الأمام فى إصرار منتصراً للفضيلة على كل شىء ، ويبدو أن أحداً لا يصدق أنه يمكن نقش صور فى المعدن بمثل هذه المبالغة والدقة فى التفاصيل . فصورة القديس جيروم فى قاعة درسه ، توضح مرحلة أهدأ من انتصار

المسيحى . . القديس العجوز الأصلع منحن فوق مخطوطته يكتب على ما يبدو فى ضوءهالته وعلى الأرض ، ومعه فى هدوء أسد وكلب ، وعلى أسكفة النافذة تجثم جمجمة فى سكون مبين ، وما يبدوفى نظر كل الناس قبعة زوجته معلقة على الحائط ، وكل الحجرة مرسومة بمنظور روعيت فيه القواعد ، ورسمت فيها كل الظلال وأشعة الشمس بدقة فائقة . وأخيراً فإن النقش ، الذى أطلق عليه ديرر اسم « السوداء » ، يكشف عن ملاك يجلس وسط أنقاض مبنى لم يتم ، وتحت قدميه خليط من الأدوات الميكانيكية والآلات العلمية ، ويتدلى من منطقته كيس ومفاتيح رمزاً للثروة والسلطان ، ويستند برأسه مفكراً على إحدى راحتيه ، وعيناه تحملقان حولها فى شىء من الدهشة وشىء من الفزع . أتراه يتساءل لأى غرض يبذل كل هذا الجهد ، ومافائدة هذا البناء ، والهدم والبناء ، وهذا السعى الحثيث وراء الثروة والسلطان والجرى وراء السراب الذى يسمى الحقيقة ومجد العلم هذا وبلبلة ذوى الفكر وهم يكافحون عبثا الموت المحتوم ؟ وهل يمكن أن يكون ديرر فى بداية العصر الحديث نفسه قد أدرك المشكلة التى واجهها العلم الظافر وهى مشكلة الوسائل التقدمية التى أساءت استخدامها الغايات التى لا تتغير ؟

وهكذا دخل ديرر عصر لوثر بالرسم تلو الرسم والتصوير وراء التصوير ، بدأب جهيد وصبر يختلفان عن تسويف ليوناردو وترف رافائيل ، واشترى حوالى عام ١٥٠٨ البيت الذى أضفى الشهرة على نورمبرج ؛ وقد دمر فى الحرب العالمية الثانية ، ثم أعادت هيئة السياحة بناءه صورة طبق الأصل منه . وكان الطابقان السفليان فيه من الحجر ، أما الطابقان الثالث والرابع فمن الخشب المكسو بالملاط ، وفوق طنف بارز يجثم طابقان آخران تحت السقف الهرمى . وهناك عاش ديرر تسعة عشر عاماً فى بؤس غير مفرط مع زوجته العقيم . وكانت أجنس ربة بيت بسيطة وتعجب لماذا يمضى ألبرخت هذا الوقت الطويل فى دراسات لا تسمن ولا تغنى من جوع ، أو مع أصدقاء يدمنون

الشراب . كان يتحرك فى دوائر لا تستطيع أن تدركها بعقلها القاصر وكان يهملها من الناحية الاجتماعية ، وكثيراً ما كان يسافر دون أن يصحبها معه ، ولكنه عندما اصطحبها معه إلى الأراضى الواطئة ، كان يتناول غذاءه مع الشخصيات المشهورة أو مع أحد ضيوفه ويترك زوجته تتناول طعامها فى (المطبخ الأعلى) مع خادمتهما . وفى عام ١٥٠٤ انضمت إلى ديرر والدته الأرملة لتعيش معهما فى البيت واستمرت معهما عشر سنوات . والصورة التى رسمها لها تثير عطفنا على الزوجة — ولم تكن بجد فاتنة — ولقد رأى أصدقاؤه فى أجنس امرأة سليطة اللسان ، لا تستطيع أن تشارك ديرر حياته الفكرية المستغرقة .

وفى سنواته الأخيرة تمتع أستاذ نورمبرج بشهرة تعم قارة أوربا ، باعتباره رائداً للفن الألمانى ومفخرة له . وفى عام ١٥١٥ منحه الإمبراطور معاشاً متواضعاً قدره مائة فلورين فى العام (٢٫٥٠٠ دولار؟) ، وكان يدفع له بصورة غير منتظمة ، لأن دخل ماكسمليان كان لا يتفق أبداً مع خططه .

وعندما مات ماكسمليان توقف المعاش ، فقرر ديرر أن يزور الأراضى الواطئة ويطلب تجديد معاشه من شارل الخامس . وأخذ معه مجموعة منوعة من الرسوم والصور الزيتية ليبيعها أو يقايض عليها فى هولندا أو فى الفلاندرز . واستطاع بذلك أن يدفع كافة نفقات الرحلة تقريباً . وتكاد تبدو فى اليوميات التى احتفظ بها عن جولته (يوليو ١٥٢٠ — يوليو ١٥٢١) وإن لم تكن تماماً — شخصية مثل التى كتبها بوزويل بعد قرنين آخرين ، فهى تسجل نفقاته ومبيعاته ومشترياته وزياراته وحفلات تكريمه ، وتكشف عن عناية ابن الطبقة الوسطى بالتفاصيل المالية ، وابتهاج الفنان بالاعتراف بعبقريته ، وهو أمر يغتفر له . ولقد حصل ديرر على الحق فى تجديد معاشه بعد مطاردة شارل فى اثنتى عشرة مدينة ، وهكذا استطاع أن يخصص باقى رحلته لمشاهدة مناظر الأراضى الواطئة وأبطالها . وأذهلته ثروة غنت وبروكسل وبروجز وروعتها ،

ومذبح آل فان أيك المتعدد الطيات فى كنيسةسانت بافون . وكاتدرائية أنتورب « التى لم أر لها مثيلا فى الأراضى الألمانية » . والتقى بارازموس ولوكاس فان ليدن وبرنايرت فان أورلى وآخرين من وجهاء الأراضى الواطئة ، ورحبت به طوائف الفنانين فى تلك المدن ، وأصيب بالملاريا فى مستنقعات تسيلاند المليئة بالبعوض فأتلفت صحته فيما بقى له من عمر .

ويقول فى صفحة من يومياته : « لقد اشتريت كراسة لوثر الدينية بخمس بنسات فضية وأعطيت واحدة لإدانة هـــذا الرجل القوى » . وفى أنتورب (مايو ١٥٢١) سمع شائعة تقول إن لوثر « قبض عليه غدرا » وهو يرحل عن مجلس نواب (دايت) ورمز ، ولم يعـــرف ديرر أن هذا الإبعاد إنما قصد به حماية هذا المصلح العظيم وخشى أن يكون لوثر قد قتل فكتب فى يومياته دفاعاً حاراً عن الثائر متوسلا بارازموس أن يخف لنجدة أنصاره : « إذن فقد اختفى هذا الرجل الذى أنار عقله الروح القدس ليتابع العقيدة الحقة . . . وإذا كان قد تعذب فإن هـــذا فى سبيل الحقيقة المسيحية ضـــد البابوية غير المسيحية التى تعمـــل ضـــد حرية المسيح وتستنزف دماءنا وعرقنا لتقتات به وتعيش فى ترهل فى الوقت الذى تحيا فيه الشعوب فى مسغبة . رباه ! إن الناس لم تسحق قط بمثل هذه القسوة تحت وطأة القوانين التى من صنع البشر ، كما حدث لهم تحت كرسى الأسقفية الرومانية . . . إن كل إنسان يرى مدى الوضوح الذى أعلنت به العقيدة فى كتب لوثر وكيف أنها تطابق ما ورد فى الإنجيل المقدس . إننا يجب أن نصون هذه الكتب من أن تحرق بل دعونا نقذف فى النار الكتب التى تعارضه . . . وأنتم أيها المسيحيون الأتقياء جميعاً ابكوا معى حزنا على فقد هذا الرجل ، وصلوا للرب أن يرسل لنا هادياً آخر . وأنت يا أرازموس الروتردامى أين تقيم ؟ ألا ترى الظلم والاستبداد الأعمى للسلطات الحاكمة الآن ؟ استمع إلى يا فارس المسيح واركب بجانب سيدنا كما هو حالك . . . أنت أيضا تستطيع أن تفوز

بتاج الشهيد . اجعل صوتك مسموعاً يا ارازموس ، فعسى الله الذى يحكم على أعمالك أن يظهر تمجيده فيك » :

وعندما عاد ديرر إلى نورمبرج وقف حياته كلها تقريبا على الفن الذى يتسم بالطابع الدينى ، مع الاهتمام الفائق بالأناجيل من جديد . وأتم عام ١٥٢٦ أعظم مجموعة من لوحاته — الرسل الأربعة — وهى تسمية غير صحيحة لأن مرقس المبشر الإنجيلى لم يكن واحدا من الحواريين الاثنى عشر، ولكن لعل هذا الخطأ يشير إلى البروتستانت فى العودة من الكنيسة إلى الأناجيل . واللوحتان من بين الممتلكات التى يعتز بها « بيت الفن » والذى جمعت فيه ميونخ ، التى أضرت بها الحرب ، مجموعتها الفنية الشهيرة . وإحدى اللوحتين تصور يوحنا وبطرس ، والأخرى تصور مرقس وبولس ، والأربعة كلهم يرتدون ثياباً زاهية اللون ، لا تكاد تتفق مع قديسين من عامة الصيادين ، وفى هذه الملابس عكف ديرر على تصوير المثال الإيطالى بينما أكد تأثير بيئته الألمانية فى الرءوس العريضة الضخمة . ولعل هذه الصور المهيبة قصد بها أن تكون أجنحة لمذبح ثلاثى الطيات فى كنيسة كاثوليكية . ولكن مجلس نورمبرج أعلن عام ١٥٢٥ تأييده للإصلاح الدينى . فتخلى ديرر عن فكرة عمل صورة مذبح ، وقدم اللوحات إلى المدينة ، وألحق بكل لوحة نقوشا تؤكد بإصرار أهمية الأناجيل ؛ وعلى الرغم من وجود المفاتيح فى يد بطرس — وهى تعد عادة أداة تمثل الكنيسة الرسمية المقدسة وسلطات الكنيسة — فإن من الممكن تفسير هذه اللوحات بأنها عهد ديرر البروتستانتى .

ولم يبق من عمره آنذاك إلا عامان وكان يعانى من نوبات متعاقبة من حمى الملاريا حطمت صحته وروحه معا . ولقد رسم فى عام ١٥٢٢ آخر صورة له باسم رجل الأحزان ، وتصوره عاريا أشعث الشعر شاحب الوجه ، عليلا يقاسى من الألم ، ويمسك فى يديه سوط تعذيب المسيح ، وظل مع ذلك

يعمل إلى النهاية وعندما مات (٦ ابريل سنة ١٥٢٨) بالغاً من العمر سبعة وخمسين عاما ترك من الرسوم والصور المحفورة فى الخشب والنقوش إلى جانب ٦٠٠٠ فلورين — ما يكفى لإعالة أرملته فى يسر كئيب ، وذلك فيما تبقى لها من العمر . وها هو بيركهايمر يقول فى رثائه : « خير صديق لى فى حياتى » وكتب نقشا تذكاريا متواضعا على القبر : « ما كان فانيا من ألبرخت ديرر يرقد تحت هذه الربوة » .

ولقد افتقد ديرر الغاية السامية باعتباره فناناً ، ذلك لأنه ضحى بمهمة الفن العظمى فى سبيل مهمة أقل وزنا . . كان يفتتن برؤية الأشكال العابرة للأشخاص والأماكن والأشياء ، وهى تدب فيها الحياة تحت يديه إلى حد جعله يستغرق بصفة أساسية فى تصوير الواقع — سواء أكان جميلا أم قبيحاً ، له معنى أو لا معنى له — ولم يكن يمزج إلا عرضا العناصر المتناثرة للإدراك الحسى لتكتمل فى خيال خلاق ، ثم تعود مجسمة فى خط أو لون وجمال مثالى ، يكشف لنا عن أهداف يسعى إلى تحقيقها أو يكشف لنا عن رؤى تيسر الفهم أو تحقق الهدوء ، ولكنه ارتفع إلى مستوى نداء عصره فحفر فى الخشب أو نقش على النحاس سيرة ذاتية بجيله المترصد المنتج وأن ريشته أو قلمه الرصاص ومنقاشه أو فرشاته استدعت الأرواح الخفية للرجال المقتدرين الذين وطأوا بأقدامهم مسرح ذلك العصر .

ولقد جعل ديرر تلك الحقبة من الزمن تعيش لنا أربعة قرون بكل ما فيها من حماسة وولاء وخوف ووهم ، واحتجاج وحلم وورع . . . كان ألمانيا .

٦ — علماء الإنسانيات الألمان

كانت ألمانيا بلدا فتيا فى الآداب مثلما كانت فى الحياة والفن . . . وانتشر تعلم القراءة والكتابة ، وصدرت الكتب متدفقة من ستة عشر ناشرا

فى بازيل ، وعشرين فى أوجسبورج ،وواحد وعشرين فى كولونيا ، وأربعة وعشرين فى نورمبرج . ولقد كان هناك أنطون كوبيرجر الذى استخدم وحده أربعا وعشرين مطبعة ومائة رجل ، وكان الاتجار فى الكتب يحتل جانبا كبيرا من التجارة الرائجة بالأسواق فى فرانكفورت وسالزبورج ونوردلينجن وأولم ، حتى قال أحد المعاصرين الألمان « إن كل إنسان اليوم يريد أن يقرأ ويكتب » . وكتب آخر يقول : « لا نهاية للكتب الجديدة التى تؤلف » . وتضاعف عدد المدارس فى المدن ، وكانت كل مدينة تقدم مكافآت أو منحا دراسية للطلبة الفقراء من الممتازين ، وأنشئت تسع جامعات جديدة فى هذه السنوات للتعليم الجديد . ونهضت أكاديميات أدبية فى ستراسبورج وأوجسبورج وبازيل وفيينا ونورمبرج ومايننز ، وفتح أبناء الطبقة الوسطى الأغنياء أمثال بويتنجر وبيركهايمربل والإمبراطور ماكسمليان نفسه مكتباتهم وعرضوا مجموعاتهم الفنية للناس ، وتبرعوا بأموالهم للدارسين المتلهفين للدرس ،وكان كبار رجال الدين أمثال جوهان فون دالبرج أسقف ورمس وألبرخت البراندنبرجى ، كبير أساقفة مايننز ، أنصارا مستنيرين للدراسة والشعر والفن ، ورحبت الكنيسة فى ألمانيا بعصر النهضة ، وهى فى هذا كانت تحذو حذو البابوات ، ولكنها تشددت فى الدراسات اللغوية لنصوص الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . وطبعت النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس ستا وعشرين طبعة فى ألمانيا بين عامى ١٤٥٣ و١٥٠٠ ، وكانت هناك عشرون ترجمة للكتاب المقدس قبل ترجمة لوثر . وليس من شك فى أن انتشار العهد الجديد بين الناس قد أعدهم لتقبل ما أعلنه لوثر متحديا لتناقض الأناجيل مع الكنيسة ، وأن قراءة العهد القديم أسهمت فى تمويد البروتستانت للمسيحية من جديد .

وكانت الحركة الإنسانية فى ألمانيا بادئ الأمر — وبعد شغفها بلوثر — أكثر مطابقة للعقيدة كما عرفها علم اللاهوت منها فى إيطاليا ، ولم يكن لألمانيا ماض قديم مثل إيطاليا ولم يتح لها أن أفادت من غزو روما الإمبراطورية

لها وتعليمها ، ولم يكن هناك رباط مباشر بينها وبين العهد القديم غير المسيحى . وكانت ذاكرتها لا تكاد تتجاوز القرون التى دانت فيها بالمسيحية ، وكان تضلعها فى العلم لا يكاد يقتحم ما قبل عهد آبائها المسيحيين . وكانت نهضتها إحياء للمسيحية الأولى أكثر منها إحياء للآداب والفلسفة الكلاسية .. وطوى الإصلاح الدينى النهضة فى ألمانيا .

ومع ذلك فإن مذهب الإيمان بالإنسان فى ألمانيا اقتدى بزعامة إيطاليا ، إذ أن بوجيو براتشيوليني وإنياس سيلفيوس وآخرين من علماء الإنسانيات جاءوا معهم بالبذرة عند زيارتهم لألمانيا ، كما أن الألمان من الطلبة والحجاج ورجال الدين والتجار والدبلوماسيين الذين زاروا إيطاليا عادوا وهم يحملون معهم — ولو عن غير قصد — لقاح عصر النهضة . ولقد تلقى رودولفوس اجريكولا ، وهو ابن قسيس هولندى يرعى أبرشية ، الكثير من التعليم فى ارفورت وكولونيا ولوفان ، ووقف سبع سنوات من عمره على التعمق فى دراسات اللاتينية واليونانية فى إيطاليا ، ثم عاد ليدرس فى جروتنجن وهيدلبرج وورمس . وتعجب أهل العصر من فضائله غير المألوفة من الجماهير . التواضع والبساطة والأمانة والورع والعفة . وكتب باللغة اللاتينية ما يكاد يكون جديراً بشيشرون ، وتنبأ بأن ألمانيا سوف « تبدو يوما وهى لا تقل لاتينية عن اللاتيوم » . والحق أن هولندة أجريكولا قد أنجبت فى الجيل التالى ارازموس وهو عالم باللغة اللاتينية إلى حد يتيح له أن يحس بأنه فى وطنه لو قدر له أن يعيش فى روما تاسيتوس وكوينتيليان .

وأصيب أجريكولا فى رحلة قام بها إلى روما بالحمى التى قضت عليه فى هيدلبرج وهو فى الثانية والأربعين من عمره (١٤٨٥) .

وكان يضارعه فى النفوذ — لا فى دماثة الطبع — جاكوب ويمفيلنج ، وكان مزاجه حادا بقدر ما كانت لاتينيته رقيقة . وقرر ناظر المدرسة الألمانى

obeikandi.com

هذا أن يرفع ألمانيا إلى مستوى إيطاليا فى التعليم والآداب ، فوضع خططا لإنشاء نظام المدارس العامة ، وأسس جمعيات من المتعلمين ، وأدرك مع ذلك مدى الخطورة إذا تحقق التقدم الفكرى دون أن يصحبه تطور أخلاقى . يتساءل قائلا : « ما فائدة تعليمنا إذا كانت أخلاقنا غير شريفة بفعل التناظر أو صناعتنا كلها لا تقترن بالورع ، أو معرفتنا كلها لا تحث على حب جارنا ، أو كانت كل حكمتنا تفتقر إلى التواضع ؟ .

ويعد جوهانس تريثميوس راهب سبونهايم آخر علماء الإنسانيات المحافظين وهو الذى كتب عام ١٤٩٦ : « لقد ولت إلى غير عودة أيام تشييد الأديرة ، أما أيام هدمها فآتية لاريب فيها » . ووصف سيلتس ، وهو عالم إنسانيات أقل إخلاصاً زميله تريثميوس بأنه « زاهد فى الشراب ، يزدرى لحم الحيوان ويعيش على الخضر والبيض واللبن ، كما كان يفعل أسلافنا فى الوقت الذى . . . . لم يكن هناك أطباء يشرعون فى تركيب أدوية لداء النقرس والحمى » . وأصبح فى خلال حياته القصيرة متفننا فى علوم جمة ، بارعا فى اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية وآدابها ، وقد قام بمراسلة ارازموس وماكسمليان والأمراء الإمبراطوريين المختارين ، وشخصيات مشهورة أخرى وفسر عامة الناس فى هذا العهد معارفه المكتسبة على أساس نظرية تذهب إلى أنه كان يملك قوى خفية خارقة . ومهما يكن من أمر فإنه مات وهو فى الرابعة والخمسين من عمره (١٥١٦) .

وكان كونرادوس سيلتس أقوى علماء الإنسانيات الألمان غيرة وأعظمهم أثراً . ولقد كان ينتقل من مدينة إلى مدينة وكأنه أديب جوال عجول يدرس فى إيطاليا وبولنده وهنغاريا ، ويعلم فى كولونيا وهيدلبرج وكراكاو وبراغ ومايز وفيينا وانجولستادت وبادوا ونورمبرج ، وكشف عن مخطوطات ثمينة كانت مهملة مثل مسرحيات هورتسويذا ، وخرائط قديمة مثل تلك الخريطة

التى أعطاها لبويتنجر وحملت اسمه . وكان يجمع حوله الدارسين أينما ذهب ويبث فيهم شغفه بالشعر والأدب الكلاسى والآثار الألمانية القديمة . وفى عام ١٤٤٧ توّجه الإمبراطور فردريك الثالث فى نورمبرج أميراً للشعراء فى ألمانيا. وأسس سيلتس فى ماينز (١٩٤١) جمعية الراين الأدبية الواسعة النفوذ وكانت تضم علماء وفقهاء فى الدين وفلاسفة وأطباء ومؤرخين وشعراء ومحامين ، أمثال أولريخ تسازيوس الفقيه القانونى الضليع وعلماء أمثال بيركهايمر وتريثموس ورويخلين وويمفيلنج . وأنشـــأ فى فيينا ، بأموال زوده بها ماكسمليان ، أكاديمية للشعر أصبحت فيما بعد قسما محترما من الجامعة يعيش فيه الأساتذة والطلبـــة معاً فى البيت نفسه وينهضان بالعمل ذاته . ويبدو أن سيلتس خسر عقيدته الدينية فى خلال دراساته ، فقد أثار مثل هذه الأسئلة : « هل تحيا الروح بعد الموت ؟ » و « هل هناك إله حقاً ؟ » وفى أسفاره اصطحب نماذج كثيرة من الجنس اللطيف ولكنه لم يصحب واحدة منهن إلى المذبح ، وانتهى أمره إلى أن يقول فى غبطة : « ليس هناك تحت الشمس أحلى من عذراء جميلة بين ذراعى رجل تبدد همومه » .

ولقد انتشر هذا الانحلال المريب وأصبح بدعة بين علماء الإنسانيات الألمان فى العقود الأخيرة قبل لوثر ؛ وكتب ايوبان هيسى Heroides Christiane « الاستشهاد المسيحى » (١٥١٤) بلغة لاتينية سليمة ، وقلد فيه أوفيد فى المجون أكثر مما قلده فى الشكل ، وتضمن خطابات حب من المجدلية إلى عيسى ، ومن مريم العذراء إلى الأب المقدس ، ولكى يقرن الفعل بالقول عاش فى انحلال مثل تشليني وفاق فى الشراب جميع من نافسوه ولم ير بأساً فى أن يفرغ فى بطنه دلوا من الجعة فى جرعة واحدة .

ومهما يكن من أمر فإن كوثرادوس موتيانوس روفوس استطاع أن يوفق فى رفق بين مذهب الشك والدين ، ولقد اكتفى بعد أن فرغ من الدراسة فى ديفنتر وارفورت وفى إيطاليا ؛ بمنصب دينى متواضع فى جوتا ووضع

على بابه هذا الشعار : « أيها السكون المقدس السعيد » Beata tranquilte ، وجمع حوله الطلبة المعجبين وعلمهم « أن يقدروا أحكام الفلاسفة وأن يضعوها فوق أحكام القساوسة » ولكنه حذرهم ، بأنهم يجب أن يخفوا شكوكهم فى العقيدة المسيحية عن الجمهور بالإقبال بأسلوب مهذب على إقامة الشعائر والمراسيم الدينية وقال : « إننا لا نقصد بالإيمان مطابقة ما نقول للواقع بل نعنى رأياً بأن الأمور المقدسة تقوم على الفطرة والإقناع الذى ينشد المنفعة » . واعترض على إقامة القداس للموتى باعتباره أمراً لا فائدة منه وعلى الصيام باعتباره شيئاً غير مرغوب فيه وعلى الاعتراف السرى باعتباره عملا يثير الارتباك . ورأى أن الكتاب المقدس يحتوى على حكايات خرافية كثيرة مثل حكاية يونان وأيوب ، ومن يدرى ؟ لعل المسيح لم يمت حقاً على الصليب ! فقد كان اليونان والرومان مسيحيين دون أن يحسوا ما داموا قد عاشوا فى استقامة ، وليس من شك فى أنهم ذهبوا إلى الجنة . ويجب أن يكون الحكم على العقائد والشعائر مبنياً لا على أساس دعاواها الحرفية ولكن على أساس آثارها الأخلاقية . فإذا كانت ترقى بالنظام الاجتماعى والفضيلة عند الفرد فيجب أن يتقبلها الجمهور دون مناقشة ، وطلب موتيانوس من مريديه أن يعيشوا حياة طاهرة ، وأقسم فى سنواته الأخيرة قائلا : لسوف أحول دراساتى إلى ورع ولن أتعلم من الشعراء أو الفلاسفة أو المؤرخين إلا ما يرقى بالحياة المسيحية . وبعد أن عاش بكل ما تقدمه الفلسفة من عزاء مات تحفه بركات الكنيسة (١٥٢٦) .

وليس من شك فى أن استياء المحافظين من مذهب الشك الذى شاع بين علماء الإنسانيات المتأخرين قد بلغ عنفوانه عند أرق علماء هذا العصر وأرحبهم صدراً فقد لاحظ جوهانس رويخلين التقليد الذى درج عليه الناس فى العصور الوسطى من جمع المعارف من اثنى عشر مركزا بفضل انتشار اللغة اللاتينية باعتبارها لغة التعليم فى أوربا الغربية . وفى مدرسة النحو ببلدته

فورتسهايم وفى جامعات فرايورج وباريس وبازيل وأورليانز وبواتييه، وفى لينز وميلان وفلورنسا وروما تابع دراسة اللاتينية واليونانية والعبرية والقانون بحماسة تصل تقريباً إلى حد التعصب ،ولقد غير اسمه على عادة علماء الإنسانيات الألمان — وهو مشتق من كلمة rauchen الألمانية بمعنى يدخن — إلى كابينو المأخوذة من كلمة kapnos اليونانية بمعنى التدخين . وألف وهو فى العشرين من عمره معجماً للغة اللاتينية طبع مرات . وفى روما أعطاه جوهانس أرجيروبولس قطعة صعبة من كتاب المؤرخ ثوسيديدس ليترجمها ، فما كان من رويخلين إلا أن استجاب فوراً حتى صاح اليرنانى العجوز : « الآن يفر اليونان وراء الألب » . ولم يكن الطالب الشهم يترك حاخاما يمر دون أن يتعلم منه شيئاً من العبرية ، ويزعم موتيانوس أنه سمع أن رويخلين أعطى دارساً يهوديا عشر قطع ذهبية ليشرح له معنى عبارة عبرية، و ربما كان هذا حلم عالم بالإنسانيات .

وأقنع بيكو ديلا ميراندولا ، رويخلين أن ينشد الحكمة فى كابالا . وبمقارنة ترجمة جيروم للعهد القديم بالنص العبرى الأصلى أشار «كابنيو» إلى كثير من الأخطاء فيما اعتاد علماء اللاهوت الاستشهاد به كنص لا يرقى الشك إليه . وعندما بلغ الثانية والثلاثين من عمره عين أستاذاً للعبرية فى جامعة هيدلبرج . وليس من شك فى أن معجم اللغة العبرية وكتاب قواعد هذه اللغة اللذين ألفهما قد أتاحا دراسة اللغة العبرية والعهد القديم على أساس علمى وأسهما فى أن يكون للكتب المقدسة المدونة بالعبرية تأثير قوى على الفكر البروتستانتى .

وحجب إعجابه بالعبرية شيئاً فشيئاً شغفه بالكلاسيات ، فقد كتب يقول « إن اللغة العبرية لم يمسها الزيف وهى جامعة توثر الإيجاز إنها اللغة التى تحدث بها الله للإنسان وهى التى تحدث بها الإنسان للملائكة ووجها لوجه»

واحتفظ بعقيدته السلفية أثناء دراساته جميعاً وإذا كان قد شابها قليل من التصوف فإنه قدم كل كتاباته وتعاليمه بإخلاص إلى سلطان الكنيسة .

وتحالفت طائفة من الظروف الغريبة فجعلت منه بطلا لعصر النهضة الألمانية ، إذ حدث فى عام ١٥٠٨ أن أصدر جوهانس بفيفر كورن ، وهو حاخام تحول إلى قسيس ، كتاب « مرآة اليهود »أدان فيه اضطهادهم وبرأهم من الجرائم الاسطورية التى شاع اتهامهم بها ولكنه حثهم فى الوقت نفسه على أن يتخلوا عن إقراض النقود وعن التلمود وأن يدخلوا فى المسيحية وقدم إلى الإمبراطور — وكان يؤازره فى ذلك رهبان الدومينيكان فى كولونيا — توصية بمصادرة جميع الكتب العبرية ما عدا العهد القديم ، فأمر ماكسمليان بتسليم جميع كتب الأدب اليهودى ، التى تنتقد المسيحية إلى بفيفر كورن لكى تفحصها جامعات كولونيا وارفورت وماينز وهيدلبرج وجاكوب فان هوجستراتين رئيس محكمة التفتيش فى كولونيا ورويخلين بفضل تضلعه فى اللغة العبرية ، وأشار الجميع ما عدا رويخلين بمصادرة الكتب وإحراقها ، وهكذا أثبت رأى الأقلية الذى يمثله رويخلين أنه معلم من معالم تاريخ التسامح الدينى ، فقد قسم الكتب اليهودية إلى سبع طوائف ، إحداها يتكون من أعمال تسخر صراحة من المسيحية وهذه يجب أن تحرق أما الباقى وتشمل التلمود فيجب الحفاظ عليها حتى ولو كان هذا لمجرد أن لها قيمة كبيرة بالنسبة للمعرفة المسيحية ، وقال بفيفر كورن إن لليهود حقا فى أن تكون لهم الحرية فى الرأى كمواطنين بالإمبراطورية ولأنهم لم يرتبطوا بأى التزام نحو المسيحية .

وتحدث رويخلين فى رسائله الخاصة عن بفيفر كورن فقال إنه « حمار » لم يتيسر له أن يحسن فهم الكتب التى اقترح إتلافها . وكان رد بفيفر كورن على هذه المجاملات أن أصدر كتاب « مرآة اليد » ، وقد هاجم فيه رويخلين

وعده أداة رشاها اليهود . فرد عليه رويخلين طعنة بطعنة وأصدر كتاب « مرآة العين » الذى أثار عاصفة بين المحافظين . وشكت كلية اللاهوت فى كولونيا إلى رويخلين أن كتابه قد أسعد اليهود كثيراً وطالبوه أن يسحبه من التداول . وحرم ماكسمليان بيعه فاستغاث رويخلين بالبابا ليو العاشر فأحال الأمر إلى مستشارين مختلفين فقرروا أن الكتاب لا ضرر منه ، فما كان من ليو إلا أن أوقف الدعوى وأكد لعلماء الإنسانيات حوله أنه لن يلحق رويخلين أى أذى .

وفى غضون ذلك اتهم بفيفركورن وأنصاره من رهبان الدومينيكان رويخلين أمام محكمة التفتيش فى كولونيا بأنه كافر بالمسيحية وخائن لعهدها ، فتدخل كبير الأساقفة وأمر بإحالة القضية إلى روما التى أحالتها بدورها إلى محكمة سبير الأسقفية فبرأت ساحة رويخلين . ولجأ الدومينيكان بدورهم إلى روما وأمرت الكليات الجامعية فى كولونيا وارفورت وماينز ولوفان وباريس بإحراق كتب رويخلين .

وإنه لأمر عجيب — ودليل مبين على الحيوية الثقافية فى ألمانيا فى هذا العصر أن يتصدى للدفاع عن رويخلين عدد كبير من المشهورين وقتذاك : أرازموس وبيركهايمر وبويتنجر وأويكولا مبادوس البازيلى وفيشر أسقف روشستر وأولريخ فون هوتن وموتيانوس وايوبان هس ولوثر وميلانكستون ، بل ودافع عنه بعض كبار رجال الدين من أنصار علماء الإنسانيات كما كان الحال فى إيطاليا . وأعلن الأمراء الامبراطوريون المختارون والأمراء وثلاثة وخمسون مدينة تأييدهم لرويخلين . وجمعت رسائل من المدافعين عنه ونشرت ، وذلك مثل « رسائل من رجال مشهورين إلى يوحنا رويخلين » Clarorum virorum pistolae ad Johannem Reuchlin . وفى عام ١٥١٥ أصدر علماء الإنسانيات كتابا أشد خطرا هو صفحة ٣٢٤ (آخر الصفحة)

أى رســائل من رجال مغمورين إلى الأستاذ المبجل أورتونيوس جراتيوس أستاذ الأدب فى كولونيا . وتعد هذه الرسالة من أعظم رسائل فى تاريخ الأدب . وأحرزت نجاحا كبيراً إلى حد أن طبعة موسعة صدرت منها عام ١٥١٦ ثم نشر ملحق لها بعد عام . وادعى المؤلفون أنهم رهبان أتقياء معجبون بجراتيوس وأعداء لرويخلين ، وأخفوا شخصياتهم تحت أسماء مستعارة عجيبة — نيكولاوس كابريمولجيوس (حالب لبن الماعز) ويوهانس بيليفكس (صانع الجــلد) وسيمون فورست (السجق) وكونرادوس أونكيبونك . واشتكى الكتاب من السخرية التى وجهها إليهم الشعراء (كما كان يطلق على علماء الإنسانيات الألمان) وذلك بلغة لاتينية أسيئت صياغتها عمدا ، قلدوا فيها أسلوب رجال الأديرة ، وطالبوا فى إلحاح بمقاضاة رويخلين : وفى الوقت نفسه فضحوا جهلهم المطلق وفظاظة أخلاقهم وغلظة عقولهم ، وناقشوا مسائل تدعو للسخرية فى رصانة على نحو ما يفعل أنصار فلسفة الكلام واستشهدوا بآيات من الكتاب المقدس لتخفيف العبارات البذيئة — وسخروا بلا تيقظ من الاعتراف السمعى وبيع صكوك الغفران وتبجيل مخلفات القديسين ومن سلطة البابا ، وهى الموضوعات نفسها التى تناولها الإصلاح الدينى . وحارت كل الأوساط الأدبية فى ألمانيا فى التعرف على شخصيات مؤلفى هذه المجلدات : ولم يسلم الناس إلا فيما بعد بأن كروتوس روبيانوس الارفورتى وهو أحد مريدى موتيانوس ، قد كتب معظم ما ورد بالطبعة الأولى وأن هوتن كتب معظم ما ورد بالملحق . وتميز ليو العاشر غضبا فحرم قراءة أو حيازة الكتاب وأدان رويخلين ولكنه أحل له نفقات محاكمة سبير (١٥٢٠) ، وانسحب رويخلين وهو شيخ منهوك القوى فى الخامسة والستين ليعيش فى الغمرات ونسبه الناس بغير صخب فى غمار تألق الإصلاح الدينى .

obeikandi.com

واختفت حركة علماء الإنسانيات الألمانية بدورها فى وهج هذه النار التى أضرمت كل شىء وتعرضت لحرب شعواء من معظم الجامعات من ناحية ومن رجال الإصلاح الدينى الذين دخلوا معها فى صراع من أجل الحياة من ناحية أخرى ، فدعموا قضيتهم بعقيدة دينية ركزت على خلاص الروح فى العالم الآخر . ولم تترك للناس إلا فسحة ضئيلة من الوقت يتدارسون فيها الحضارة الكلاسية أو يصلحون من أحوالهم فى هذه الحياة الدنيا ، وحكم علماء الإنسانيات الألمان على أنفسهم بالهزيمة عندما فشلوا فى الارتقاء بالأدب اليونانى إلى مستوى الفلسفة اليونانية .

وبالدخول فى جدل عقيم أو الإغراق فى صوفية أقل نضجا من صوفية اكهارت ، لم يتركوا أعمالا عظيمة إذ أن كتب قواعد اللغة والمعاجم التى كان رويخلين يؤمل أن تكون « أثرا خالدا له يبقى أكثر من النحاس الأصفر » سرعان ما طويت فى غياهب النسيان . ومع ذلك فمن يدرى أن لوثر كان يجرؤ على أن يطلق قذائفه التى تشبه قذائف داود على تيتزل والبابوات إذا لم يكن عقل ألمانيا قد تحرر إلى حد ما من الرعب من أنصار الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على يد علماء الإنسانيات . لقد كان أتباع رويخلين وموتيانوس أقلية قوية فى أرفورت حيث درس لوثر لمدة أربع سنوات وأصبح أعظم شاعر ألمانى فى هذا العهد وتغذى بلبان علم الإنسانيات رسولا متحمسا للإصلاح الدينى .

٧ — أولريخ فون هوتن

لم يكن هناك عمالقة فى عالم الأدب الألمانى فى هذا العهد قبل لوثر ، إذ لم يكن هناك سوى حيوية وخصب عجيبين ؛ وكان الشعر يكتب ليقرأ جهرة ، ومن ثم كان يلقى ترحيباً فى الكوخ وفى القصر . واستمر تمثيل

مسرحيات العشاء الربانى وآلام المسيح ، التى يغشاها ورع شديد مموه باهتمام قوى بالفن الدرامى .

وما أن حل عام ١٤٥٠ حتى كانت الدراما الشعبية الألمانية قد تحولت نحو التعلق بالدنيا إلى حد كبير . وتضمنت حتى فى خلال التمثيليات الدينية ، هزليات ساذجة ، وأحياناً فاضحة ، من « الفارس » ، وشاع المزح فى الأدب وانتشرت نوادر تيل أولنشبيجل وهذره فى ألمانيا وقتذاك ، وهو المخادع الجوال ، (ومعنى اسمه حرفيا مرآة البومة) ، ولم ينج من حيله المرحة عامى أو قسيس ؛ ففى عام ١٥١٢ نشرت نوادره وأظهر العصر والأدب بل والفن ، الرهبان والقسس وهم يسحبون إلى جهنم ، وازدهر الهجاء فى جميع الأشكال الأدبية .

وأشد هجاء فى هذا العهد تضمنته مسرحية سفينة الحمق بقلم سباستيان برانت ، ولم يكن فى وسع أحد أن يتوقع عملا يشيع فيه مثل هذا المرح من أستاذ فى القانون والأدب الكلاسى فى بازيل ؛ فقد تخيل برانت أسطولا (نسيه فى رحلة وأطلق عليه فيما بعد اسم سفينة) مزوداً برجال بلهاء ، ويحاولون أن يشقوا عباب بحر الحياة ، ويحاول أبله وراء الآخر أن يسير فى اختيال على المسرح ، وتتحمل طائفة تلو أخرى سوط لذعات كلمات المحامى الغاضبة — الفلاح والميكانيكى والشحاذ والمقامر والبخيل والمرابى والفلكى والمحامى ومدعى العلم والمحتال والفيلسوف والقسيس . ومثّلت المسرحية أيضاً زهو الرجال الجشعين وكسل الطلبة وخسة التجار وخيانة الأجراء — كل هؤلاء ينالون نصيبهم من الضربات ، ويحتفظ برانت باحترامه للكاثوليكى الورع المستمسك بعقيدته والذى يرقب حياته على أساس الظفر بالجنة .

وقد طبع هذا الكتاب طبعة فاخرة ، وزين بالصور التى توضح كل فقرة هجاء لاذعة فى الحكاية ، وحاز الكتاب قصب السبق فى غرب أوروبا ، وترجم

إلى اثنتى عشرة لغة ، وكان أوسع الكتب انتشاراً فى هذا العهد بعد الكتاب المقدس .

وإذا كان برانت قد مس بسوطه رجال الدين برفق فإن توماس مورنر ، وهو راهب فرنشسكانى ، هاجم الرهبان والقسس والأساقفة والراهبات بهجاء مقنع فاق فى حدته وغلظته وذكائه هجاء برانت . ولقد قال مورنر إن القس يعنى بالمال أكثر مما يعنى بالدين ، وهو يتملق رعايا أبرشيته من أجل الحصول على كل دانق ، ثم يدفع مقداراً مما جمعه إلى الأسقف التابع له ليسمح له باتخاذ خليلة ، أما الراهبات فإنهن يمارسن الحب خفية ، والراهبة التى تنجب أكبر عدد من الأولاد تختار رئيسة للدير . ومهما يكن من أمر فإن مورنر اتفق فى الرأى مع برانت على وجوب الإخلاص للكنيسة واتهم لوثر بأنه أشد بلاهة . ورثى لضعف الإيمان عند المسيحى والفوضى الضاربة أطنابها فى العالم الدينى ، وذلك فى قصيدة مؤثرة بعنوان « ضعف الإيمان عند المسيحيين » .

وإذا كانت الشعبية الهائلة التى حظيت بها هذه القصائد الهجائية قد أماطت اللثام عن الاحتقار الذى يكنه حتى الكاثوليكيين المخلصين لرجال الدين ، فإن أدب الهجاء العنيف الذى تميز به أولريخ فون هوتن قضى على كل أمل فى أن تصلح الكنيسة من نفسها ، ودعا إلى الثورة الصريحة . وقد ولد أولريخ من أسرة تنتمى إلى الفرسان فى فرانكونيا ، وعند ما بلغ الحادية عشرة من عمره أرسل إلى دير فولدا على أمل أن يصبح راهباً . وبعد وضعه بست سنوات تحت الاختبار هرب (١٥٠٥) وعاش عيشة طالب متجول وأخذ يؤلف الشعر ويلقى القصائد يستجدى بها العيش ، وكثيراً ما يقضى ليلة بلا مأوى ، وإن كان لا يعدم الوسائل لمطارحة فتاة الغرام وهى فتاة تركت بصمتها فى دمه . وأنهكت الحمى جسده أو كادت ، وكثيراً ما كانت تشل ساقه اليسرى من أثر القروح والأورام ، وكان حاد الطبع يستثار بسهولة ، مثله فى ذلك مثل كل عليل ، ومع ذلك وجده أيوبان هسى محبوبا كما هو ، واصطحبه أسقف

كريم إلى فيينا حيث رحب به علماء الإنسانيات ، ولكنه اختلف معهم وانتقل إلى إيطاليا . ودرس فى بافيا وبولونيا، وصوب قذائف من القصائد الساخرة ضد البابا جوليوس الثانى ، وانضم إلى جيش ألمانى من الغزاة لكى يحصل على الطعام ، ثم قفل أدراجه عائدا إلى ألمانيا وهو فى أقصى حالات الإعياء .

وابتسم له الحظ إلى حين فى ماينز : فقد كتب قصيدة مدح فى كبير الأساقفة الشاب ألبرخت فتلقى منه ٢٠٠ جيلدر (٥٠٠٠ر دولار ؟) اعترافاً بالجميل . وكان بلاط ألبرخت وقتذاك يعج بعلماء الإنسانيات، وكان الكثيرون منهم من المفكرين الأحرار الذين لا يتمتعون بالاحترام . وبدأ هوتن هناك يكتب مقالته فى كتاب « رسالة من رجال مغمورين » ، والتقى هناك أيضاً بارازموس ، وخلب العالم الكبير لبه بسعة اطلاعه وذكائه وسحره . وبدأ مرة أخرى ينشد شمس إيطاليا مستعيناً بالمال الذى حصل عليه من ألبرخت والمعونة التى تلقاها من والده الذى رق لحاله ، وكان فى كل محطة يتوقف فيها ينسف طائفة علماء اللاهوت والرهبان المنافقين الفاسدين . « وأرسل من عاصمة البابوية إنذارا إلى كروتوس روبيانوس هذا نصه : أرجو أن تتخلى يا صديقى عن رغبتك فى مشاهدة روما، فإن ما تنشده هناك لم يعد موجودا ... [قد تعيش من السلب والنهب ، وقد ترتكب جريمة قتل أو تنتهك حرمة المعابد ... وقد تعربد وتستسلم للشهوات وتنكر وجود الله فى السماء ، ولكن إذا أتيت إلى روما محملا بالمال فثق بأنك ستلقى من الناس أعظم احترام . إن الفضيلة وبركات السماء تباع هنا ، بل إن فى وسعك أن تشترى الحق فى أن ترتكب ماشئت من الخطايا فى المستقبل ،وليس من شك فى أنك تكون معتوهاً لو تمسكت بالأخلاق الطيبة ؛ فالناس العقلاء سيكونون أشراراً » .

وفى سخرية مرحة أهدى إلى ليو العاشر (١٥١٧) طبعة جديدة من رسالة فالا المدمرة عن « هبة قسطنطين » الخيالية ، وأكد للبابا أن أغلب أسلافه من البابوات كانوا طغاة مستبدين ولصوصاً ومغتصبين ، وأنهم حولوا

الجزاء فى العالم الآخر إلى دخل لأنفسهم ، وقد وقع هذا العمل فى يد لوثر فزاد من سخطه على البابوية .

وعلى الرغم مما تتسم به كثير من قصائد هوتن من عنف وقدح ، فإنها حققت له شهرة موزعة على أنحاء ألمانيـــا . وعندما عاد إلى الوطن عام ١٥١٧ أضافه كونراد بويتنجر فى نورمبرج وتوج ماكسمليان ، بناء على اقتراح هذا العالم الثرى ، هوتن أميراً للشعراء . وألحقه ألبرخت وقتذاك بخدمته الدبلوماسية وأرسله فى بعثات مهمة وصلت إلى باريس . وعندما عاد هوتن إلى ماينز (١٥١٨) وجد ألمانيا فى ثورة بسبب مقالات لوثر عن صكوك الغفران ، ولابد أنه ابتسم عندما رأى صاحبه كبير الأساقفة المستهين بالأمور متورطاً فى موقف لا يحسد عليه . وكان لوثر قد استدعى إلى أوجسبورج لمواجهة الكاردينال كاجيتان ، وليدفع عن نفسه تهمة الهرطقة . وتردد هوتن ؛ فقد كان مرتبطا ، عاطفيا وماليا ، بكبير الأساقفة ، ولكنه أحس بنداء الحرب فى دمه فامتطى جواده وسافر إلى أوجسبورج .

٨ — الكنيسة الألمانية

ترى كيف كانت الكنيسة الألمانية فى شباب لوثر ؟ لقد ظهرت إشارة فى استعداد كبار رجال الدين أن يتقبلوا النقد الموجه للكنيسة ونقادها . وكان هناك بعض الملحدين المشتتين ضاعت أسماؤهم فى غمرات الزمن ، ويذكر ارازموس «هناك بيننا أناس يعتقدون مثل أبقراط أن الروح تموت مع الجسد» ، ووجد بعض المتشككين بين علماء الإنسانيات ، ومتصوفون أنكروا ضرورة الكنيسة أو القسس كوسطاء بين الله والإنسان ، وأكدوا التجربة الدينيـــة الباطنية كبديل للشعائر والقربان المقدس ، وكانت هنا وهناك جيوب صغيرة من الوالدانيين الذين أنكروا التفرقة بين القسس والعامة ، وكان فى شرق ألمانيا

بعض المسيين الذين وصفوا البابا بأنه خصيم للمسيحية ، وفى ايجر دمغ أخوان هما جون وليفين بن أوجسبورج صكوك الغفران ووصفوها بأنها أمر يدعو إلى السخرية (١٤٦٦) .

وأعلن جوهان فون فيبل ، وهو أستاذ من ارفورت ، فى مواعظه أن الجبر والاختيار بفضل الله ، ورفض الاعتراف بصكوك الغفران والقربان المقدس والصلوات للقديسين وأعلن : « إنى لأحتقر البابا والكنيسة والمجالس ولا أعبد إلا المسيح » . وأدانته محكمة التفتيش ، فتراجع عما قال ، ومات فى السجن (١٤٨١) ، وقد ناقش فيسيل جانسفورت ، الذى اشتهر خطأ باسم جوهان فيسيل ، الاعتراف والحل ، وصكوك الغفران والمطهر ، واتخذ من الكتاب المقدس الحكم الوحيد على العقيدة وجعل الإيمان المصدر الوحيد للخلاص ، وإذن فهانحن أولاء أمام لوثر فى جملة . وفى عام ١٥٢٢ قال لوثر : « لو كنت قرأت مؤلفات فيسيل من قبل لظن أعدائى أن لوثر قد اقتبس كل شىء منه ، إذ أن آراءنا تتفق إلى حد كبير » .

ومع ذلك فإن الدين فى جملته كان يزدهر فى ألمانيا ، وكانت الغالبية العظمى من الناس محافظين ، وكانوا أتقياء بين خطاياهم وكئوسهم ، وكادت الأسرة الألمانية أن تصبح كنيسة فى ذاتها ، إذ كانت الأم تقوم بمهمة الواعظ والأب يقوم بدور القسيس ، وكان أفرادها يكثرون من الصلاة ؛ وكانت كتب الأسرة الخاصة بالتعبد لا يخلو منها بيت . أما الذين لا يستطيعون القراءة فكانت توفر لهم كتب مصورة Biblia Pauperum تصور قصص المسيح ومريم والقديسين ، وكانت صور العذراء عديدة كصور عيسى ، والتسابيح تتلى فى كثير من التكرار المشوب بالأمل . وأسس جاكوب شبرنجر عضو محكمة التفتيش جمعية من الرهبان لتكرار تلاوتها ، وثمة صلاة ألمانية كانت تخاطب الثالوث الوحيد المشهور : « المجد للعذراء والأب والابن » .

وكان بعض رجال الدين متدينين كالناس ، ولابد أنه كان هناك بعض القسس المخلصين للعقيدة — ولو أن أسماءهم قلما كانت تسمع وسط ضجيج الشر — يمكن أن ينشروا مثل هذا الورع الذائع أو يدعموه بين الناس . وكان لقسيس الأبرشية ، حظية أو زوجة يعترف بها القانون العام . ولكن يبدو أن الألمان الذين لا يخشـــون الإقدام قد اغتفروا هذا الصنيع باعتباره سلوكا أفضل من التخالط الجنسى ، ثم ألم يتمرد البابوات أنفسهم فى هذا العهد الذى شاعت فيه الشهوات على العزوبة ؟ أما بالنسبة لرجال الدين النظاميين ، وهم هؤلاء الذين تعرضوا للخضوع لنظام صارم فى الدير ، فإن كثيراً من طوائفهم شغلوا أنفسهم وقتذاك بالإصلاح الذاتى الجاد . وقد استقر رهبان البندكتين فى شىء من رغد العيش بالدير ونعموا بالترف الدنيوى ، واستمر فرسان التيوتون فى انحلالهم الأخلاقى وقساواتهم العسكرية وأطماعهم الإقليمية ، ولكن رهبان الدمينيكان والفرنشسكان والرهبان الأوغسطينيين عادوا إلى التزام قواعدهم وقاموا بأعمال كثيرة فى مجال البر العملى ، وكان الزهاد الأوغسطينيون أشد الرهبان حماسة لهذا الإصلاح الدينى ، وكانوا فى الأصل نساكا أو رهبانا زاهدين ولكنهم تجمعوا فيما بعد طوائف وحافظوا فى إخلاص واضح على عهودهم الرهبانية من تقشف وعفة وخضوع ،وتعلموا إلى درجة تكفى لشغل كثير من كراسى الأستاذية فى الجامعات الألمانية . وكانت تلك هى الطائفة التى اختار لوثر أن ينتمى إليها عندما قرر أن يصبح راهبا .

وكانت الشكاوى ضد رجال الدين الألمان موجهة أساسا إلى البطاركة بسبب ثرائهم وانغماسهم فى النعيم الدنيوى . فقد كان على بعض الأساقفة والرهبان أن يهيمنوا على اقتصاد مساحات كبيرة وصلت إلى حوزة الكنيسة وإدارتها ، وكانوا سادة إقطاعيين متوجين أو مكللين ، غير أنهم لم يكونوا

دائماً متسامحين ، وكان رجال الدين هؤلاء يتصرفون مثل أناس تعلقت قلوبهم بالدنيا لاكرجال نذروا أنفسهم لعبادة الله ، ويزعم الرواة أن كثيرا منهم كانوا يذهبون فى مركباتهم لصحبة حظاياهم إلى مجالس الدايت الإقليمية أو الاتحادية . وقد لخص جوهانس جانسن ، وهو بطريرك كاثولبكى متعلم ومؤرخ مساوئ الكنيسة الألمانية قبيل عهد الإصلاح الدينى ، ولعله كان قاسيا جدا فى حكمه فقال :

« إن التناقض بين الهيام بالتقوى والجشع الدنيوى ، بين الزهد الورع والتماس النفع الذى يتنافى مع الدين ، يبدو بوضوح بين صفوف رجال الدين كما يبدو بين طوائف المجتمع الأخرى . وفضلا عن هذا فإن الوعظ ورعاية الأرواح كانا يلقيان إهمالا تاماً من كثيرين من القسس ورجال الدين . واستشرى الشح والخطيئة الفادحة بين رجال الدين من جميع الرتب والطوائف فى غمرة تلهفهم على زيادة الموارد الدينية والدخول والضرائب والأجور العائدة إلى أقصى حد ، وكانت الكنيسة الألمانية أغنى الكنائس فى العالم المسيحى ، ويقدر البعض أن ما يقرب من ثلث الأراضى فى البلاد كان بين أيدى الكنيسة ، وأدى هذا إلى أمر يستحق اللوم بين السلطات الدينية ، إذ أخذت تنشد دائماً ممتلكاتها وكانت مبانى الكنيسة ومؤسساتها تستوعب أكبر جزء من الأرض فى كثير من المدن .

وفى قلب الهيئة الكهنوتية ذاتها كان هناك أيضاً تناقض ملحوظ فى الدخل ، فقد كانت الطوائف الدنيا من رجال الدين فى الأبرشيات ، الذين كانوا يستمدون رواتبهم الاسمية فقط من ضرائب العشور غير الثابتة ، يضطرون فى كثير من الأحايين — بدافع المسغبة ، إن لم يكن بدافع إغراء الحرص — إلى الاشتغال بتجارة لا تتفق بتاتاً مع مناصبهم ، وكانت تعرضهم إلى الاحتقار من رعايا أبرشياتهم ، ومن جهة أخرى فإن الطوائف العليا من رجال الدين كانت

تنعم بثراء فاحش لا حد له ، وكان كثير من رجالها لا يعانون سيتا من وخز الضمير فى التظاهر بطريقة ممقوتة تثير غضب الشعب وحسد الطبقات العليا وازدراء كل العقول الجادة . . وجأرت الأصوات بالشكوى فى كل مكان من الارتزاق المهين بالمقدسات . . ومن المبالغ الضخمة التى ترسل على دفعات ، ومن الضرائب التى تدفع للبابا من الأرباح السنوية ، ومن مال الرشوة .

وبدأ إحساس مرير بمقت الإيطاليين يتفشى شيئاً فشيئاً ، حتى بين رجال من أمثال كبير الأساقفة برتولد فون هنيبرج ، ممن كانوا أبناء مخلصين للكنيسة المقدسة . وكتب يقول فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٤٩٦ : « يجب على الإيطاليين أن يكافئوا الألمان على خدماتهم وألا يستنزفوا دماء الهيئة الكهنوتية بسلب الذهب على دفعات » .

وكان من الممكن لألمانيا أن تغتفر لأساقفتها تعلقهم بالدنيا ، لو أنها أعفيت من ادعاءات البابوات ومطالبهم ، وقد استاءت روح القومية الناهضة من مزاعم البابوية أنها لا تعتبر أى إمبراطور حاكماً شرعياً إلا إذا أيده البابا ، وأن من حقها خلع الأباطرة والملوك إذا أرادت . واستمر الصراع قائماً بين السلطتين الزمنية والدينية على التعيينات فى المناصب وعلى تداخل الاختصاصات بين القضاء المدنى والمحاكم الأسقفية ، وعلى حصانة رجال الدين من تطبيق جميع التشريعات المدنية تقريباً . وتطلع الأشراف الألمان فى غيظ وحسد لممتلكات الكنيسة الغنية ، وأسف رجال الأعمال لأن الأديرة التى تطالب بالإعفاء من الضرائب تنافسهم فى مجالس الصناعة والتجارة . وكان النزاع فى هذه الرحلة قائماً على أمور مادية أكثر مما هو قائم على اختلافات دينية ؛ وهاهو مؤرخ كاثوليكى آخر يقول :

« كان إجماع الرأى فى ألمانيا أن المحكمة الرومانية ركزت الضغط فى مسألة

الضريبة إلى درجة لا تحتمل . . . . وارتفعت الشكوى مرة بعد أخرى من أن مستحقات المحكمة العليا والضرائب التى تدفع للبابا من أربح العام . . . ونفقات الرسامة للكهان قد زيدت بلا مبرر أو توسع فيها بطريقة غير قانونية، وأن صكوك غفران جديدة كثيرة صدرت دون موافقة أساقفة البلد ، وأن ضريبة عشور تلو أخرى قد فرضت من أجل حرب صليبية ثم حولت إلى غرض آخر . بل إن رجالا كرسوا حياتهم للكنيسة والمحكمة البابوية . . . كثيراً ما أعلنوا أن شكاوى الألمان من روما كانت فى معظمها قائمة على أساس سليم من وجهة النظر المالية » .

وفى عام ١٤٥٧ وجه مارتن ميير رئيس الوزراء خطاباً غاضباً لخص فيه المتاعب التى تعانى منها ألمانيا من جانب المحكمة الرومانية قال فيه :

إن اختيار البطاركة كثيراً ما يؤجل دون داع ويحتفظ بالمراتب الرفيعة والمناصب للكرادلة وأمناء سر البابا ، وهاهو الكاردينال بيكولوميني نفسه قد منح أرضاً براحا فى ثلاث مقاطعات ألمانية بصورة غير عادية لم يسمع بمثلها من قبل . كانت الوعود بالمناصب والإقطاعيات تبذل بلا حساب ، وكانت الجزية والضريبة تجمع بالتعسف ، ولا يمنح المدينون مهلة للسداد، ومن المعروف أن الضرائب التى تجبى كانت أكثر من المبالغ المستحقة ، وكانت الأسقفيات تمنح لا لأكثر رجال الدين جدارة بل لصاحب أكبر عطاء . وكانت صكوك غفران جديدة تصدر يومياً ، وضرائب عشور للحرب تقرض دون استشارة البطاركة الألمان لا لغرض إلا جمع المال . وكانت القضايا التى ينبغى أن تعرض فى الوطن تحول بسرعة إلى المحكمة الرسولية، وقد عومل الألمان كما لو كانوا برابرة أغبياء وأغنياء واستنزفت منهم الأموال بألف حيلة ماكرة . . . . وقد ظلت ألمانيا سنوات طويلة تتمرغ فى التراب تنتحب على فاقتها ومصيرها المحزن ، أما الآن فإن أشرافها استيقظوا من النوم وقرروا أن يتخلصوا من نير العبودية وأن يستعيدوا حريتهم العريقة .

وعندما أصبح الكردينال بيكولومينى عام ١٤٥٨ البابا بيوس الثانى ، واجه هذا التحدى ؛ فطلب من ديتر فون ايزنبورج مبلغ ٢٠٫٥٠٠ جيلدر قبل أن يؤيد ترشيحه لمنصب كبير أساقفة ماينز (١٤٥٩) ، فما كان من ديتر إلا أن رفض دفع المبلغ بحجة أنه تجاوز كل ما كان يدفع من قبل ، فأصدر البابا قراراً بحرمانه من غفران الكنيسة ، ولكن ديتر تجاهل هذا الحرمان وأيده فى هذا بعض أمراء من الألمان ، وعهد ديتر إلى محام من نورمبرج يدعى جريجور هايمبرج بإثارة الرأى العام لمنح المجالس الدينية سلطة أعلى من سلطة البابوات ، فذهب هايمبرج إلى فرنسا لرفع دعوى جماعية ضد البابوية ، وخيل للبعض فترة ما أن الأمم الشمالية سوف تتنصل من الولاء لروما ، ولكن عملاء البابا انتزعوا من الحركة الواحد بعد الآخر من أنصار ديتر وعين بيوس مكانه أدولف الناساوى . واشتبك جيشا الأسقفين فى حرب دموية هزم فيها ديتر ، ووجه إلى الزعماء الألمان تحذيرا بأنهم ما لم يقفوا معا فإنهم سيسامون الخسف والضيم واحدا بعد الآخر . وكان هذا الإعلان إحدى الوثائق الأولى التى طبعها جوتنبرج .

ولم يهدأ استياء الألمان بهذا النصر الذى أحرزه البابوات ، وبعد أن تحول مبلغ كبير من المال من ألمانيا إلى روما فى اليوبيل عام ١٥٠٠ طالب مجلس الدايت فى أوجسبورج بضرورة إعادة هذا القدر من المال إلى ألمانيا . وشكا الإمبراطور ماكسمليان من أن البابا سحب من ألمانيا دخلا يزيد مائة مرة عما يستطيع هو نفسه أن يجبيه منها . وفى عام ١٥١٠ ، وكان وقتذاك فى حالة حرب مع البابا يوليوس الثانى ، طلب من عالم الإنسانيات ويمفيلنج إعداد قائمة بشكاوى ألمانيا ضد البابوية ، وفكر فى فترة من الزمن أن يقترح فصل الكنيسة الألمانية عن روما ، ولكن ويمفيلنج أثناه عن عزمه بحجة أنه لن يجد تأييداً دائماً من الأمراء ، ومع ذلك فإن كل التطورات الاقتصادية فى هذا العهد مهدت لثورة لوثر . وليس من شك فى أن اختلافا فى المصالح

المادية مهد أيضاً للإصلاح الدينى فى ألمانيا ، فطالب الألمان بوضع حد لتدفق الأموال الألمانية إلى إيطاليا ، أى إلى نهضة إيطاليا تمول الشعر والفن بالذهب الوارد من وراء جبال الألب .

وواكبت حركة المعاداة لرجال الدين الورع بين الناس . وهاهو راع أمين يكتب « ان روحاً ثائرة من الكراهية للكنيسة ورجال الدين قد تفشت بين الجماهير فى مختلف أرجاء ألمانيا . . . إن صيحة الموت للقساوسة « التى طالما ترددت فى السر همساً أصبحت الآن كلمة السر التى تردد كل يوم » . كان هذا العداء المعروف حاداً إلى درجة أن محكمة التفتيش التى ارتفع شأنها وقتذاك فى إسبانيا كانت لا تكاد تجرؤ على إدانة أى أحد فى ألمانيا . وصدرت كتيبات عنيفة اللهجة حافلة بالهجوم على الكنيسة ، وكان رفيقاً بالكنيسة الألمانية بقدر ما كان عنيفاً على الكرسى الأسقفى الرومانى .

وانضم بعض الرهبان والقساوسة إلى حملة الهجوم ، وأثاروا أبرشياتهم ضد الترف الذى يعيش فيه كبار رجال الدين . وجاء الحجاج العائدون من يوبيل عام ١٥٠٠ إلى ألمانيا بقصص فظيعة — ومبالغ فيها فى كثير من الأحيان — عن البابوات المنحلين والسموم البابوية وصخب الكرادلة وعن وثنية وخسة عامة ، و أقسم كثير من الألمان أنهم سيسحقون هذا الطغيان مرة أخرى ، كما حطم أسلافهم سلطان روما عام ٤٧٦ . وتذكر آخرون ما لقيه الإمبراطور هنرى الرابع على يد البابا جريجورى السابع من إذلال فى كانوسا ، واعتقدوا أن الوقت قد حان للانتقام ، وفى عام ١٥٢١ قال اليانذر ، القاصد الرسولى للبابا ، محذرا ليو العاشر من ثورة وشيكة ضد الكنيسة : « إنه منذ خمس سنوات سمع من كثير من الألمان أنهم لا ينتظرون إلا أحد الحمقى ، ليفتح فمه ضد روما » .

وكانت آلاف العوامل والمؤثرات الكهنوتية والفكرية والعاطفية

والاقتصادية والسياسية والأخلاقية ، تتجمع بعـــد قرون من التعويق والاضطهاد فى دوامة تقذف بأوربا فى أعظم فورة شهدتها منذ غزو البرابرة لروما . ثم إن إضعاف البابوية بالنفى فى أفنيون والانقسام فى صفوف البابوية وانهيار النظام فى الأديرة وترهب رجال الدين والترف الذى يرفل فيه البطاركة وفساد مجالس القضاء الرومانية ووجوه النشاط المتسم بالإقبال على الدنيا للبابوات وأخلاقيات الكسندر السادس وحروب يوليوس الثانى والمرح المستهتر الذى عرف به ليو العاشر والاتجار فى المخلفات المقدسة وبيع صكوك الغفران وانتصار الإسلام على العالم المسيحى فى الحروب الصليبية إلى جانب الحروب التركية وازدياد الاتصال بالعقائد غير المسيحية وتدفق العلم العربى والفلسفة العربية وتدهور مكانة الفلسفة الكلامية فى ظهور فلسفة سكوتس اللاعقلانية وشك أوكهام وفشل حركة التوفيق فى الإصلاح والكشف عن الحضارة الوثنية القديمة واكتشاف أمريكا واختراع الطباعة وانتشار القراءة والكتابة والتعليم وترجمة الإنجيل وقراءته والإدراك الجديد للتناقض بين فقر الرسل وبساطتهم وبين ثراء الكنيسة الفاحش والثراء المتزايد لألمانيا وإنجلترا واستقلالهما الاقتصادى ونمو طبقة وسطى ترفض التسليم بقيود رجال الدين ومزاعمهم والاحتجاج على تدفق الأموال إلى روما وتحويل القانون والحكم إلى الأغراض الدنيوية وفتوة القومية وتقوية الملكيات والتأثير القومى للغات والآداب الشعبية وتفاعل الميراث الفكرى الذى خلفه الوالدانيون وويكليف وهس والمطالبة الصوفية بالتخفف من الطقوسية فى سبيل ديانة تلتحم بالشخصية والروحية وتتسم بالاتصال المباشر بالإنسان . . . إن هذه كلها كانت تتحد فى سيل عارم سوف يحطم عرف القرون الوسطى الذى كان أدنى إلى القشرة ، وسوف يحل جميع المعايير والروابط ويمزق أوربا إلى أمم ومذاهب ، وسوف يكتسح أمامه أكثر فأكثر دعائم المعتقدات المأثورة وما تقدمه من عزاء ، ولعلها تؤذن ببداية النهاية لسلطان المسيحية على الحياة العقلية للرجل الأوربى .